

البحث عن الماضي

التاريخ والذاكرة

مارس آذار ١٩٩٠
الثمن ٥٠ قرشا

المحتـــويات

مارس / آذار ١٩٩٠



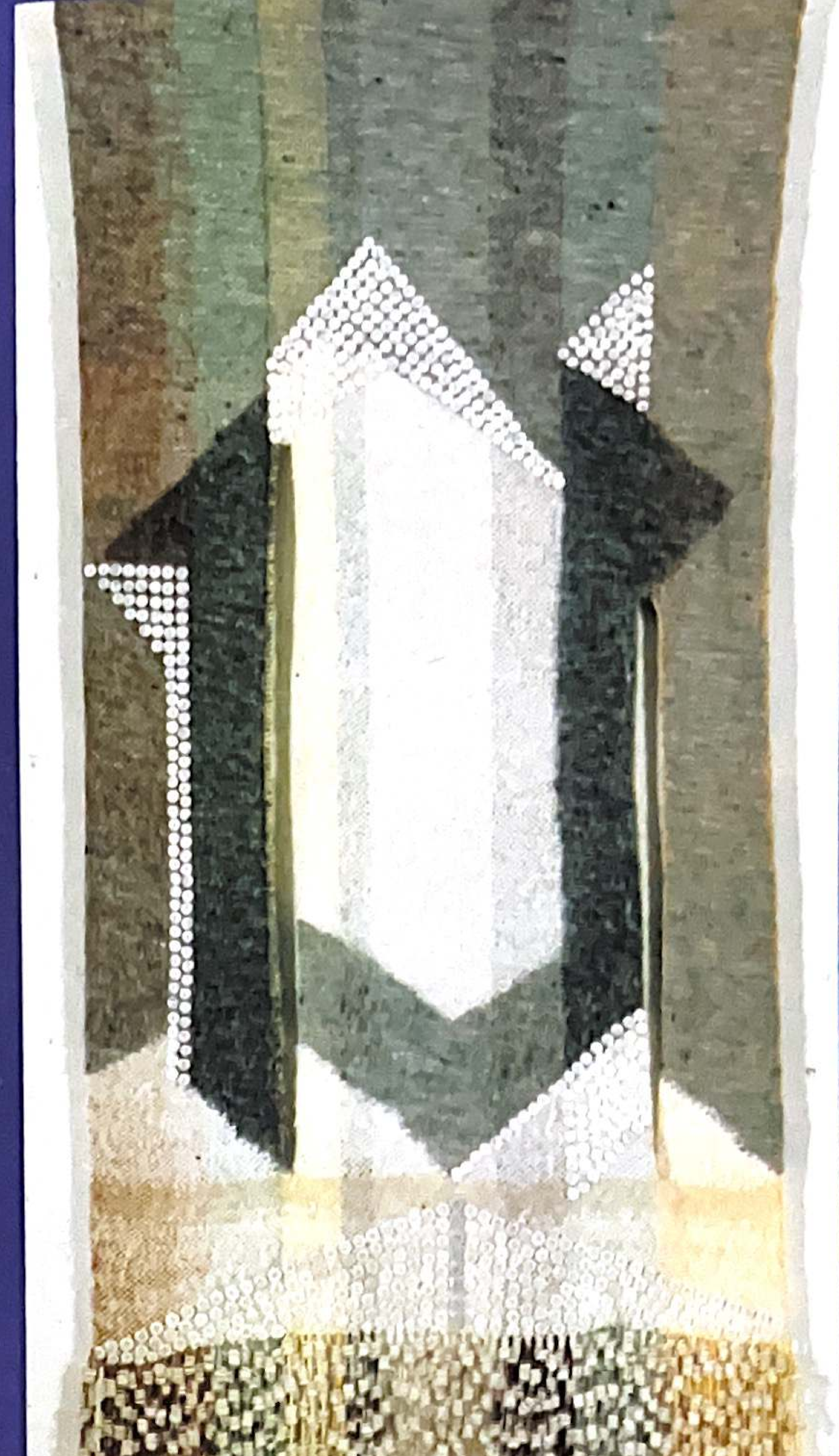
لم تعد هناك قارات غير مستكشفة ولابحار مجهولة ولاجزر تكتشفها الأسرار . وباستطاعتنا اذن أن نتغلب على الحواجز المادية التى تقف فى طريق الاستكشاف ، لكن حواجز الجهل المتبادل بين الشعوب والثقافات المختلفة مازالت قائمة فى كثير من الحالات .

ولو أن عولس (بطل الأوديسة) بعث حيا لاستطاع أن يجوب أرجاء الأرض دونما عائق . ولكن ثمة اليوم رحلة تدعونا إلى استكشاف مافى العالم من آفاق ثقافية متعددة والتعرف على حياة الشعوب المختلفة وعلى مواقفها من العالم الذى تحيا فيه

وتلك هى الرحلة التى تقترحها اليوم رسالة اليونسكو عليكم أيها القراء ففى كل شهر سيدرس كتاب مبرزون من جنسيات مختلفة موضوعا ذا أهمية عالمية من زوايا ثقافية ومهنية مختلفة .أما البوصلة التى سيهتدى بها فى هذه الرحلة التى ستجوب مختلف الآفاق الثقافية فى العالم فهى احترام كرامة كل الشعوب فى كل مكان

نقاط التلاقى

إننا ندعو القراء إلى أن يزودونا بالصور التى يمكن نشرها فى هذا الباب . وينبغى للصور التى ترسلونها أن تعرض رسما أو تمثالا أو أثرا معماريا أو أى موضوع ترون أنه مثال للتلاقح بين الثقافات . أو يمكنكم بدلا من ذلك أن ترسلوا صورا لعملين من ثقافتين مختلفتين ترون بينهما صلة واضحة أو تشابها ذا دلالة . ويرجى أن ترفقوا بكل صورة نبذة عنها .



صلة تخطيطية

١٩٨٢ . منسوجة جدارية من الصوف والألياف الصنعية وأزرار اللؤلؤ . ٨٥ x ١٧٨ سم . من صنع مارى وبيير ديون .

رأس يرتدى قبعة مثلثة القرون كما صورت وفقا للمذهب التكعيبى فى هذه المنسوجة التى صنعها على نول تقليدى فنانان من كيبك .وقد استوحيا فكرة استخدام الأزرار اللؤلؤية من الملابس المزركشة التى كان يلبسها الباعة الجوالون فى شوارع حى الإست إند فى لندن .

افتتاحية العدد

لكل مجتمع ماضيه ، ولكن المجتمعات لم تقيّم ماضيها بنفس الطريقة ولم تتبع فى أسترجاعه نفس الإجراءات .فالأحداث التى تقع فى نطاق كل مجتمع هى التى تحفزه إلي التساؤل بشأن الفترات المنصرمة من تاريخه .لقد تنوعت المواقف من الذاكرة تنوعا شديدا فى الحضارات المختلفة ، وذلك تبعا للبنى الاجتماعية ونظم توزيع السلطة و لاستخدام الكتابة أوعدم استخدامها وطبيعة الدين السائد وعلاقات الناس بالزمن والموت وغير ذلك من العوامل .

وقد صارت أعراف التأريخ مقبولة فى الوقت الحاضر على نطاق واسع بحيث أصبحنا نسلم بها تسليما ، ولانكاد ندرك أن ثمة كثيرا من الطرق الممكنة الأخرى لمواجهة الماضى .ومثال ذلك أن تنظيم الذكريات وفقا للترتيب الزمنى ليس أمرا مشتركا بين كل المجتمعات .

ويبدوا أن التأريخ بالمعنى الحديث يشهد ازدهارا واسع النطاق .ولايقتصر الأمر على رواية قصص الملوك والأمراء والشعوب والأمم ، فكل فئة وكل مؤسسة تريد أن يكتب تاريخها .ومن الاتجاهات العصرية الشائعة مايسمى بـ "التاريخ الفورى" .

ففى الماضى كان المؤرخ لايبدأ فحص السجل التاريخى قبل أن تندرج الأحداث فى إطار منظور ما .أما اليوم فإن التليفزيون وغيره من وسائل إعلام الجماهير يقدم للمتلقين التاريخ وهو مازال قيد الصنع ، وبذلك تضيق المسافة بين العناوين الرئيسية وكتب التاريخ وتميع الحدود بين الموضوعات الإخبارية والموضوعات التاريخية .

ويلاحظ فى نفس الوقت أن ثمة اهتماما متزايدا إن لم يكن مفرطا بطرائق إدراك التاريخ فى الأزمنة الغابرة وبإعادة تأليف التاريخ من ذكريات مكبوتة أو باهتة ، ذكريات حفظت كلاما أوكتابة ولاسيما ذكريات ضحايا التاريخ كالذين هلكوا فى أفران الغاز أومعسكرات الاعتقال .وقد صارت الذاكرة نفسها موضوعا للبحث التاريخى .

ولقد رأى محررو "رسالة اليونسكو" أن يستكشفوا علاقات الإنسان بالماضى ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن من المحال الوفاء بحق هذا الموضوع المتشعب فى عدد واحد .ومن ثم كان هذا هو العدد الأول من عددين خصصا للتأريخ على صعيد العالم فى الماضى والحاضر .وموضوع هذا العدد هو "التاريخ والذاكرة" أوالعملية التى حاول بها المؤرخون أن يهزموا الزمن وينقذوا الماضى من النسيان .



مقطع من لوحة بريشة شارل جوزيف ناتوار (١٧٠٠ - ١٧٧٧) عنوانها «صورة رمزية للتاريخ إذ يكتب تحت رعاية مينرفا».

الذاكـــرة والزمـــن

بقلم: فرانسوا هارتوج

يختلف مفهوم الزمن من ثقافة إلى أخرى ورغم أن التاريخ والذاكرة مرتبطان بحيث لاينفصل أحدهما عن الآخر، فإن العلاقات بينهما لم تخل في جميع الأحوال من التعقيد.

كتب عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي لويس دومون يقول مامعناه اننا عندما نتكلم اليوم عن التاريخ فإن مايجول في خاطرنا لايقتصر على تسلسل مطلق أو نسبي للأحداث ، وإنما نعني سلسلة سببية أو بعبارة أفضل مجموعة من التغيرات ذات المغزى . إن حياتنا في التاريخ تعني فيما نرى أن ندرك وجود البشر والمجتمعات والحضارات في تطورها عبر الزمن . بل إننا نكاد نعتقد أن التغير وحده له معنى وأن الثبات لامعنى له ، في حين أن معظم المجتمعات رأت العكس تماما [1] .

وقد ظهر هذا المفهوم كموجة وعامل للتقدم في القرن الثامن عشر ، إبان عصر الأنوار في أوروبا . وكان بمثابة صياغة جديدة علمانية لرؤية مسيحية معالمها الرئيسية هي خلق العالم ، فتجسد المسيح ، فنهاية الزمان . ووجد المفهوم اكتماله في فلسفة التاريخ عند هيجل والمادية التاريخية عند ماركس . فالحقيقة وفقا لهذا المفهوم لم تعد توجد بين دفتي كتاب مقدس ، بل هي التاريخ عينه كما يتمثل في الكتاب الحقيقي لـ "النفس البشرية عبر الأزمنة والأمم" (هردر) ، وحيث تتكشف البشرية في خلودها الممكن على الأقل .

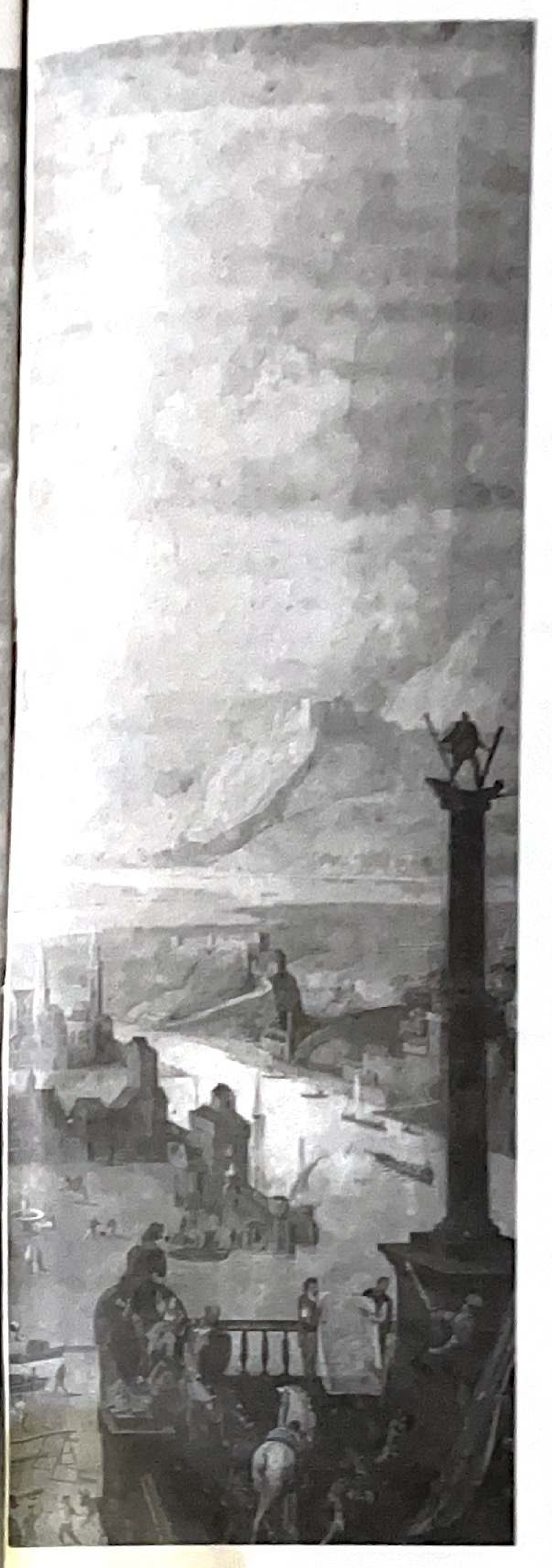
وبذلك يصبح الزمن في الممارسة التاريخية أداة قوامها التسلسل الزمني كمبدأ للتصنيف لايفوقه مبدأ آخر والخطيئة الكبرى في هذه الحال هي المفارقة التاريخية .

غير أن هناك علاقات أخرى بالزمن - أو لنقل أزمنة أخرى - يتوارى فيها قانون التعاقب ليفسح المجال لظواهر التراكم والتراكب والمحاكاة والتعايش والاستيعاب من جديد

ذاكرة خارج الزمن

ومن هنا كانت الذاكرة في الهند البرهمانية ، لاتهتم بتعاقب الذكريات وترتيبها وفقا للتسلسل الزمني . وفي هذا الصدد كتب عالم الدراسات الهندية الفرنسي "شارل مالاموه يقول" إننا نبحث عبثا عند البرهمانيين عن فكرة "عالم الذاكرة" فالذكريات لاترسم معالم سيرة ما وإنما تؤدي إلى جعل حدود الشخص منطقة ضبابية وحلقة غير مغلقة "ولقد يمكن المرء إذن أن يقول "لوأنني توصلت إلى إتقان التقنيات المناسبة ، وقرت خاصة بأسباب الجدارة الضرورية لاستطعت كما هو معلوم ، أن أتذكر حيواتي السابقة .

وإلى جانب هذه الذاكرة العادية ، الموجهة نحو التذكر ، توجد ذاكرة أخرى مدربة حسنة التدريب مضبوطة بدقة ومخصصة تماما للحفظ . وعليها يعتمد في حفظ نص الفيدا المقدس عن ظهر قلب ، وهو الكتاب الذي يرجع تاريخ تدوينه ، بالتأكيد ، إلى القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل ، وإن كان نقله لايعتمد على الكتابة ولكن على الصوت في المقام الأول . فالبرهمانيون يستخدمون مجموعة من التقنيات المحكمة التي تؤدي إلى "تجزئ" النص ، وبذلك يتوصلون إلى "دمجه" بالتدريج في شخصية التلميذ . وذلك أن التلاوة ينبغي أن تتم دون أغلاط ، فالغلطة خطيئة بالإضافة إلى أنها كارثة على صعيد الطقوس . وفي نهاية هذه المكابدة ، يبدو النص وكأنه موضوع مجرد من كل سياق مفارق للزمن .



ومثل هذه الطريقة فى تربية الذاكرة تقع على طرف نقيض من الشاغل التأريخى كما نشأ وتطور فى الغرب . وهى تفترض نوعا آخر من الزمنية ومن الذاكرة ومن التاريخ .

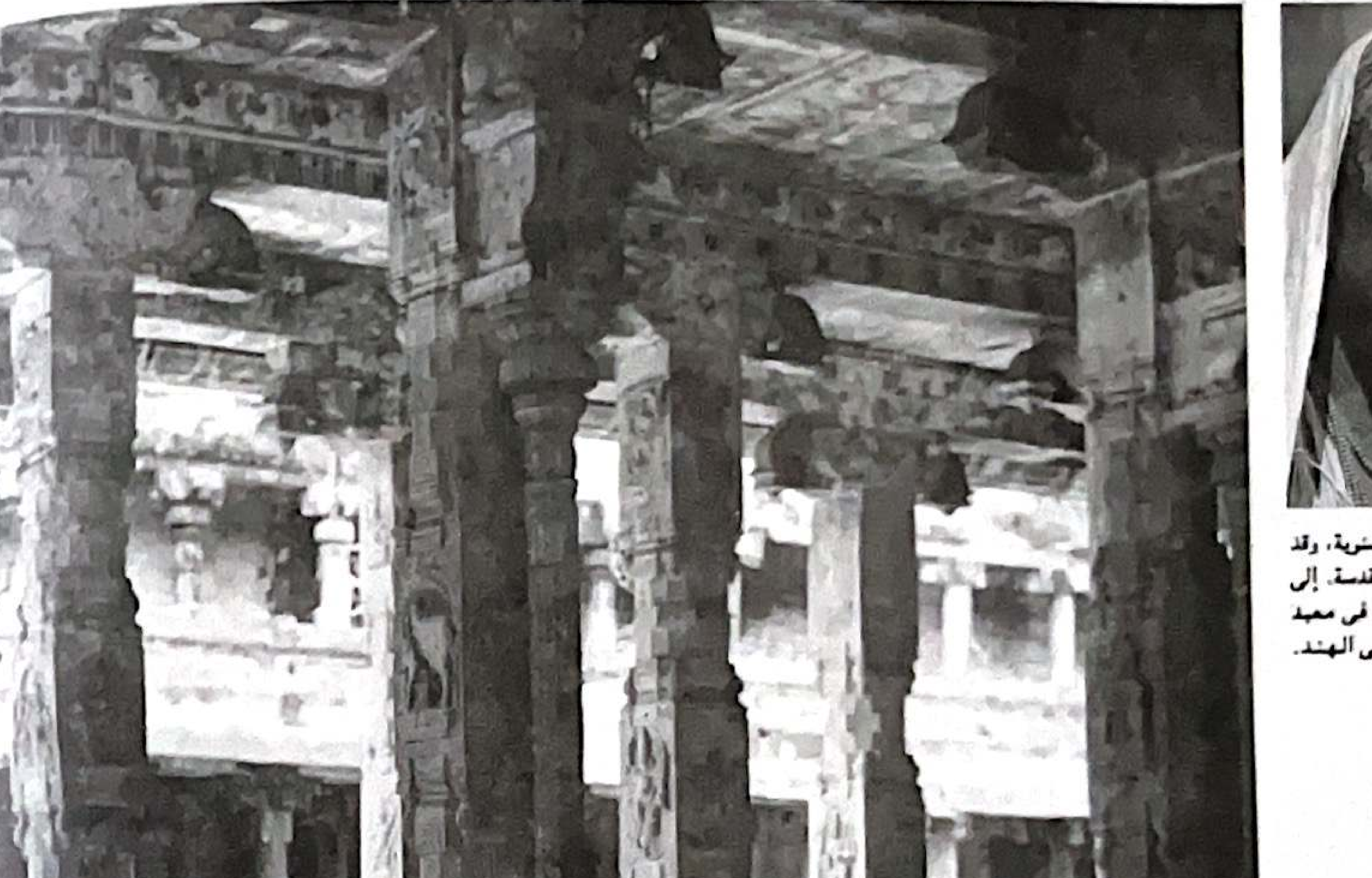
تاريخ فى الماضى تاريخ فى الحاضر

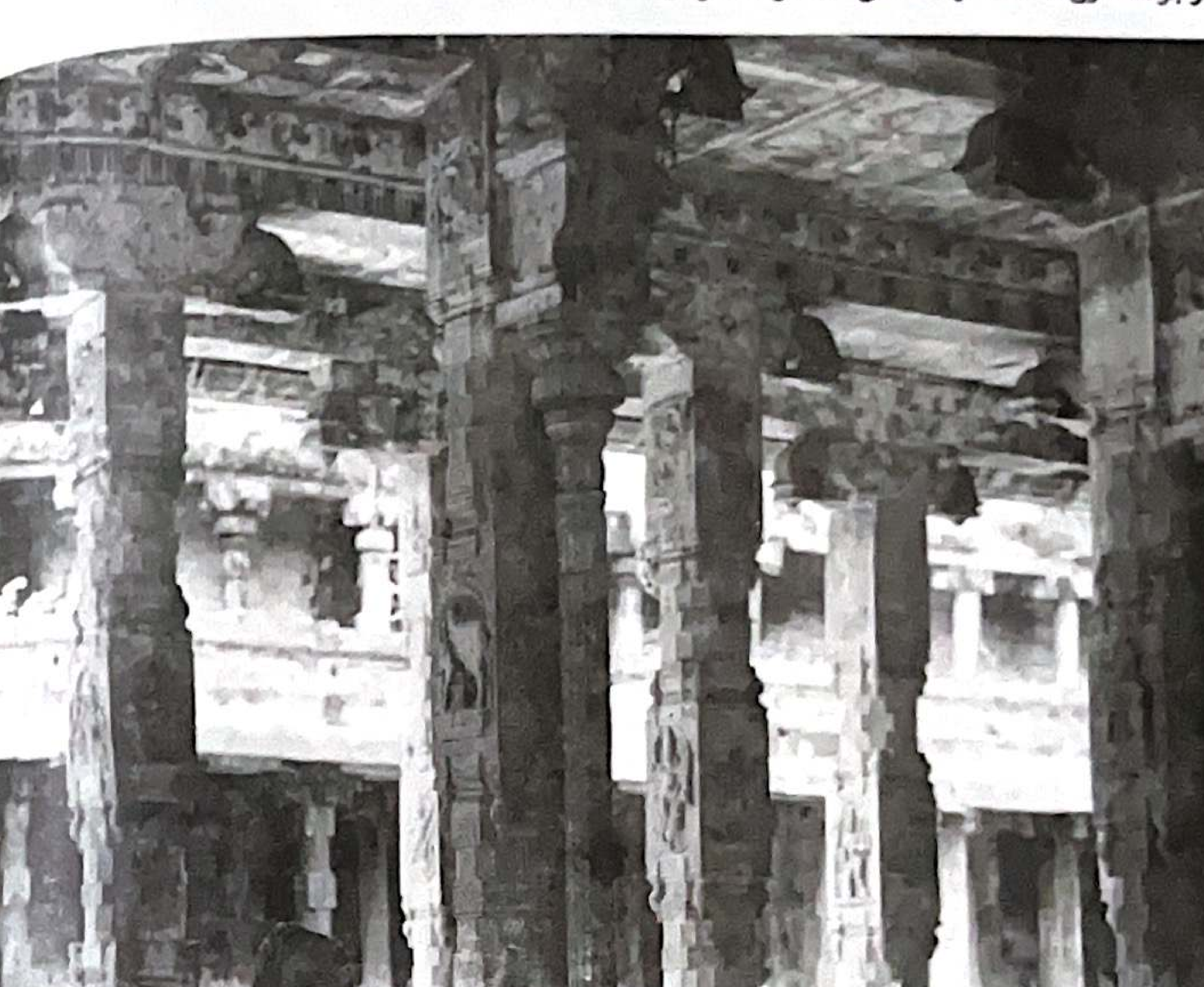
وقد أكد هيرودوت أبو التاريخ الغربى فى مستهل "تواريخه" أنه يريد أن ينقذ آثار النشاط البشرى من النسيان ، فبإزاء ثبات الطبيعة وخلود الآلهة ، يصف المؤرخ بكلامه هذه الآثار الزائلة بطبيعتها ، ويحفظها بكتابته .وهو بوصفه وريثا للشاعر الملحمى ، يعلن للناس أن مفاتيح الخلود بيديه .

ورغم أن التاريخ والذاكرة مترابطان فإن علاقاتهما معقدة ، متغيرة نزاعية .فقد كان تيوسيديد مقتنعا بأن التاريخ لايكون "علميا" إلاإذا اقتصر على الحاضر ورأى بناء على ذلك أنه إنما يكتب ضد الذاكرة فهى لاتؤتمن. كذلك رأى خلفاؤه البعيدون فى القرن التاسع عشر أنه ينبغى الفصل فصلا تاما بين التاريخ والذاكرة وإن كانوا استندوا فى ذلك إلى مثل أعلى آخر هو أن يكون التاريخ فى الماضى وفى الماضى فقط وبذلك ينتهى التاريخ حيثما تبدأ الذاكرة .



هندى براهمى من أتباع الفيشنوية، وقد نقشت على جبهته نصوص مقدسة. إلى اليسار، براهميان يصليان فى معبد شهلا بشهر امبارام جنوبى الهند.





فرانسوا هارتوج
فرنسى. مؤرخ ومدير البحوث بمدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية بباريس، من بين مؤلفاته المنشورة عن كتابة التاريخ فى العصور القديمة وفى العصر الحديث كتاب عنوانه Le miroir d'Herodote («مرآة هيرودوت»، ١٩٨٠) وآخر عنوانه Le 19 siécle et l'Histoire: Le cas Fustel de Coulange («القرن التاسع عشر والتاريخ: حالة فوستل دى كولانج»، ١٩٨٨).

ثم حدث منذ وقت قريب تحول فى هذا المضمار ، وغزت الذاكرة ميدان التاريخ .ومن هنا صار من الضرورى أن يعاد النظر فى الاثنين معا .ففى موضوع مثل إبادة النازية لليهود كيف يمكن التوفيق بين مقتضيات الذاكرة وضرورة التاريخ ؟ وأصبحت الذاكرة اليوم موضوعا للتاريخ ، بعد أن كانت مشوبة فى نظر المؤرخين وصار ثمة تاريخ للذاكرة

شعب الذاكرة

إن كلمة "زخور" بالعبرية تعنى "تذكرا" وذلك هو الأمر الذى يتردد فى قصص التوراة واليهودية كلها .ولاينفك إسرائيل يتلقى الأمر بالتذكر ، وبعدم الاستسلام للنسيان؛ غير أن "زخور" هو أيضا عنوان كتاب ليوسف ياروشلمى، ينطلق من هذا الأمر بالتذكر ليدرس علاقة اليهود بماضيهم والتوراة نص مقدس ونص مكتوب وهى فى المقام الأول نص منزل ، مثلها مثل الفيدا .وعلى اليهود بدورهم أن يدرسوا التوراة (٢) وأن يتعلموها ويستظهروها.

بيد أن صلة اليهود بكتابهم المقدس تختلف كل الأختلاف عن صلة البرهمانيين بالفيدا .إذ ليس ثمة مايفضى إلى تجزيئه وتحريره من كل سياق . فالمهم فى هذه الحالة هو ما وقع فى الحدث بالذات والطريقة التى وقع بها ، بدأ بالوحى الإلهى .وذلك أن الوحى تاريخ ، وقد تحول زمن البدء ، منذ الخروج من الفردوس ، إلى زمن تاريخى وينبغى للقصة التوراتية ، بما أنها تاريخية فى بنيتها العميقة ، أن تكون ذاكرة لمسيرة الزمن والبشر ، ذاكرة التاريخ وذاكرة بنى الإنسان .

ولكن اقتضاء التذكر لايستوجب إبداء أى فضول بإزاء الماضى فى حد ذاته ، كلا ولايترتب عليه ، كما أراد هيرودوت إنقاذ آثار النشاط البشرى الجديرة بالإهتمام من النسيان .فالماضى الوحيد الذي يجدر بالاهتمام هو ماضى تدخلات الله فى التاريخ وردات الفعل البشرية التى استتبعتها .

ورغم أن اليهود لم يتخلوا قط عن ضرورة التذكر فقد مر بهم زمن توقفوا فيه عن كتابة التاريخ .أفيكون السبب فى توقفهم عن هذه الكتابة أنهم صاروا هم أنفسهم "شعب ذاكرة" ؟ فلقد كان التاريخ والذاكرة مقترنين حتى ذلك الحين ثم بدا أنهما يسبيلهما إلى الانفصال . ومن ثم كان الأدب الحاخامى ، اللاحق للتوراة ، يخلو تماما من كل بعد تاريخى .

وقد لاحظ البعض أن الحد الفاصل ظهر فى مجتمع «يبنه» (حوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد) الذى حدد النص النهائى للتوراة . وعندئذ وقع مايشبه الاستثناء الذى يثبت القاعدة فظهر فلافيوس جوزيفوس الكاهن والمؤرخ لينتصر للتاريخ .ورغم أنه لم يظهر يهودى آخر ليحترف مهنة المؤرخ إلابعد ذلك بقرون فقد رأى ياروشلمى أن من الخطأ أن نستنتج من ذلك أن الحاخامات كانوا لايكترثون للتاريخ ، وأن من المستحسن إرجاع موقفهم إلى "تشبعهم" تماما بالتاريخ .فالتوراة ليست فقط كتاب التاريخ الذى وقع ولكنها تقدم أيضا نسيج التاريخ كله ، الحاضر منه والمستقبل .وهى واضحة المعنى ، وماعداها ليس إلاعرضا لاقيمة له .

ولايهم هنا إلا هذه الغاية المحددة للتاريخ أو لكتابته على الأقل .وهى غاية تثير عددا من المسائل الصعبة وخاصة مايلى : أى رابط يربط بين التاريخ والمكان ؟ وهل كتابة التاريخ (مازالت) ممكنة فى غياب المكان أى بعد تقويض الهيكل الثانى ؟ وإنه لمن الممكن أن يستشهد فى هذا الصدد بفلافيوس جوزيفوس ، فقد شدد على الصلة بين التأريخ ، من حيث إمكانه وممارسته ، وبين الهيكل لأنه هو وحده الذى يفوّض "المؤرخ" ويأذن له .

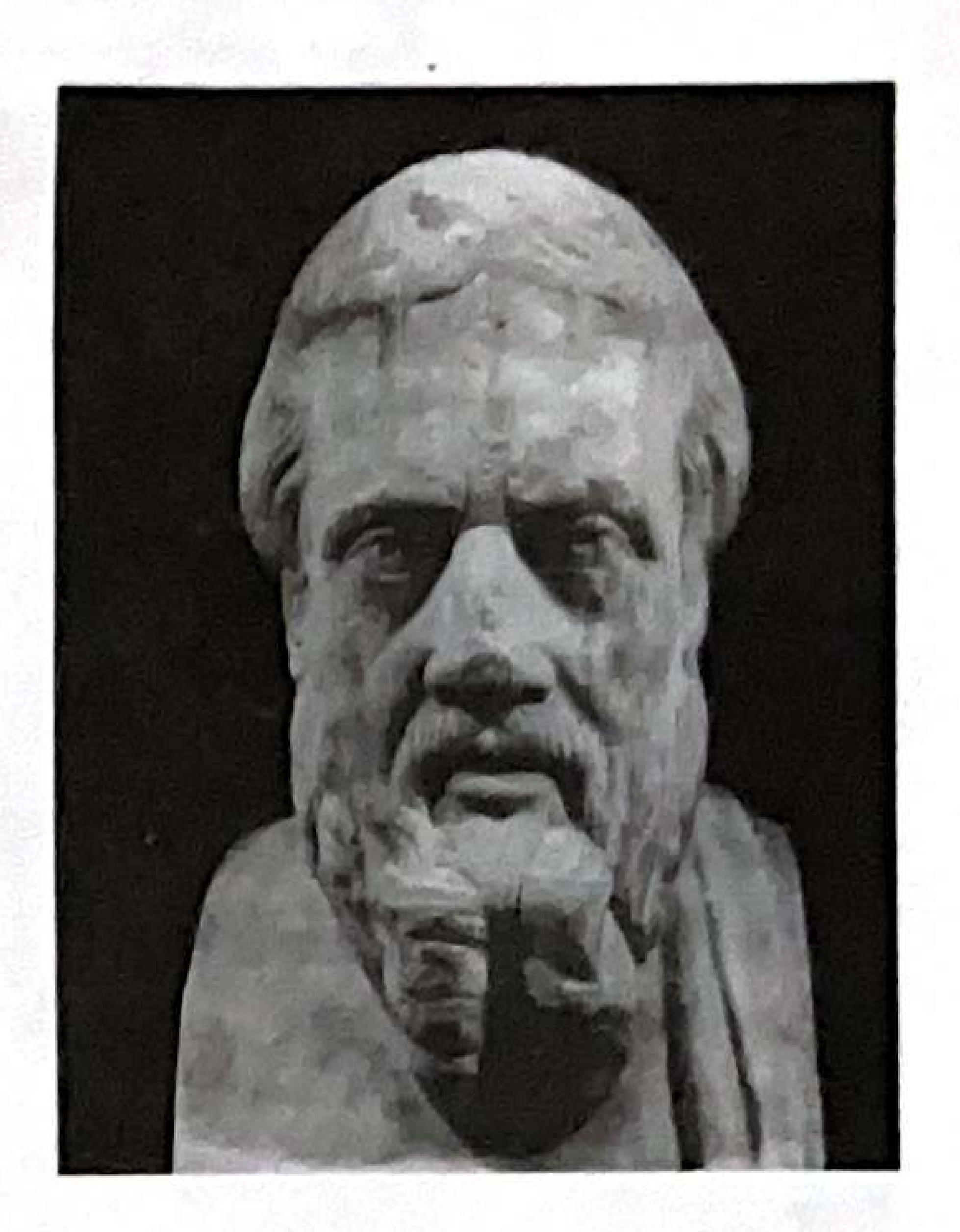
أما "يبنه" المدرسة التى إفتتحها يوشانان بن زكاى عند



نسخة من التوراة محفوظة فى معبد بالقاهرة

تقويض الهيكل ، فقد كانت "صرحا للذاكرة" ولم تكن مكانا لإعداد المؤرخين .وقد أصاب فرويد عندما قال فى سنة ١٩٣٨ ، "إن المحنة السياسية ألمت بالأمة اليهودية قد علمت اليهود أن يقدروا الميزة الوحيدة المتبقية لهم - أى الكتابة - حق قدرها .فما أن دمر تيتوس هيكل أورشليم حتى بادر الحاخام يوشانان بن زكاى إلى طلب الإذن بفتح أول مدرسة لتعليم التوراة فى "يبنه" .ومنذ تلك اللحظة ، صار الكتاب المقدس والاهتمام الروحى هما الرابط الذى يشد أواصر الشعب فى شتاته" .■

هيرودوت القصاص الفذ



بقلم : كارمين أمبولو

"هذا عرض للبحوث التى قام بها هيرودوت هاليكارناسوس لكيلا يمحى الزمن على مامر بالبشر من أحداث ولكيلا تفقد الأعمال الجليلة الرائعة التى أنجزها الإغريق والبرابرة شهرتها ، مع الأهتمام خاصة بالأسباب التى جعلتهم يتقاتلون" .

لقد قدم لنا هيرودوت فى هذه الديباجة التى صدّر بها "تواريخه" أول تعريف لأهداف المؤرخ ومهنته .وقبل ذلك بستين عاما أوضح سلفه هكتايوس الملطى الذى كان يحرص أن يخضع للبحث العقلى التراث الميثولوجى الإغريقى ، هدفه من الكتابة فقال : "هذا ما يقوله هكتايوس الملطى ك " : إننى أدون هذه الأشياء متى رجع عندى صدقها .والواقع أن أساطير الأغريق عديدة ومضحكة ، أوهكذا على الأقل تبدو لى ."وقد أكد بهذا دور المؤلف مع الإلحاف فى التأكيد وقرر الشرطين اللذين فرضا فى العالم الهلينى على فن التأريخ وهما : التدوين والصدق .

غير أن النغمة تغيرت بمجىء هيرودوت فهو لم يحاول أن يقدم تفسيرا شخصيا لما يرى (وكثير ما كان يقابل بين الروايات المختلفة التى تلقاها) ، بل كان يريد أن يعرض بحوثه ويسرد تحقيقاته .وكان قوام التاريخ عنده بحث ورواية فى آن معا .وقد تقرر بمجيئه إذن العنصران الرئيسيان اللذان قدر لهما على مدى قرون أن يكون قوام فن التأريخ عند الأغريق . وكان التركيز ينصب بعد هيرودوت تارة على عنصر البحث وتارة أخرى على عنصر الرواية ، ولكن مع أعطاء الأولوية لضرورة الصدق حتى عند أكثر المؤرخين ميلا إلي الرواية .

هيرودوت القصّاص

حين يصف هيرودوت عمله بأنه "عرض لبحوث"و"سرد لتحقيق" ينبغى أن نفهم من هذاالتعبير المزدوج المعنى أنه يدل فى الوقت ذاته على نقل الحادثة التاريخية نقلا شفهيا وصياغتها كتابة .فالشفاهى والمكتوب يمتزجان فى "تواريخه" .وذلك أن هيرودوت كان يقدم مختلف الحكايات التى يتكون منها كتابه إلى الجمهور بقراءتها فى اجتماعات عامة .وليس أدل على ذلك من الإشارات التي ترد فى النص ذاته إلى ردود أفعال المستمعين ومن البنية الدائرية لنثر هيرودوت .

وقدأثرت هذه الطريقة تأثيراً عميقا على تكوين العمل فقد يبدو متنافر الأجزاء لفرط مافيه من استطرادات تتشابك وتتداخل أحيانا كأنها الصناديق الصينية أوالعرائس الروسية .ونظرا إلى أن هيرودوت كان رساما أكثر منه نحاتا فقد برع فى الرواية وعرف كيف يخلب لب المستمع القارىء بوصف سمة أوحادثة أوشخصية .

وكثير ماكان هيرودوت يروى حكاية فيتلو الرواية الشفهية برواية أخرى فهو بعد أن روى قصة أنتصار الأثينيين على الفرس فى "ماراتون" ، يقفى عليها بقصة "ابيزيلوس حكى وهو يتحدث عن نكبته أنه خيل اليه أن رجل من المشاه ضخم الجثة تغطى لحيته درعه بأكمله وقف أمامه ، وأن هذا الشبح تخطاه وصرع جنديا كان يحارب إلى جواره .وهذ فيما قيل لى ، هى رواية ابيزيلوس."ويخطىء من لايرى فى هذه القصة سوى حالة من حالات عديدة ينقل فيها هيرودوت خبرا شفهيا .وذلك أنها مثل من أمثلة اللعب بالمرايا الذى لايتوقف فى قصصه ، فابيزيلوس يحكى قصة ما وقع له فيرددها غيره ، وهيرودوت يسمعها ثم يرويها بدوره .

وإن دل هذا على شىء فلايدل على مجرد ولع بالغرائب والعجائب - الأمر الذى كثيرا ما أخذ على هيرودوت - بل على رغبة فى إثارة الحيرة والدهشة .لقد كان هيرودوت يجيد إثارة فضول الناس لأن فضوله هو نفسه كان كبيرا .كان يهتم بالوقوف على كل التفاصيل الغريبة وعلى عادات الشعوب وعلى كل ماهو عجيب سواء فى الأحداث أوالمخترعات أوالآثار التاريخية كأهرام مصر ومتاهات "موبريس" وجدران بابل .وكان حب المعرفة يدفعه إلي السفر والترحال ، وكان يجرى تحرياته لدي المصادر المطلعة فى كل بلد كالعلماء والكهنة أولدى أشخاص غير معروفين .ومما قال فى هذا الصدد : "أوجه الأسئلة لأننى راغب فى المعرفة ."

وقد عرضت فى الديباجة على نحو واضح أسباب هذه الرغبة العارمة فى البحث والتنقيب .فقد جاء فيها أن على المؤرخ أن يحارب الزمن وأن يحفظ كل ما يبدو له جدير بالذكر .وكان فى المدن والاماكن المقدسة فى اليونان فى ذلك الوقت أخصائيون يعنون بالتذكرة وكانت مهمتهم هى التذكير بالوقائع الربانية والبشرية وفى تسجيل هذه الوقائع ولكن مؤرخنا كان يؤدى دوره على مستوى أعلى بكثير من المستوى الإدارى والقانونى والدينى لأولئك الأخصائيين فقد أراد هيرودوت للأحداث والأعمال العظيمة التى رواها

أعلاه إلى اليمين ، تمثال نصفى لهيرودوت .أعلاه الملك قورش عند دخوله بابل فى موكبه المهيب .رسم للفنان مجهول ،يرجع الى سنة ١٨٢٠ تقريبا

Ampolo
كارمن أمبولو ، إيطالى .
يعلم التاريخ اليونانى بجامعة بيزا .أجرى بحوثا عن نشأة روما القديمة وعن السياسة والمجتمع فى اليونان القديمة وعن العلاقة بين الأسطورة والتاريخ .من بين مؤلفاته المنشورة كتاب عنوانه : "Le Cit-ta antica" ("المدينة فى العصور القديمة"،١٩٨٠) .كما ألف بالاشتراك مع م . مانفرديني كتابا عنوانه "LA Vite di Teseo et di Romolo" ("حياة ثيسيوس وروميولوس"،١٩٨٨)



معركة بين اليونانيين والبرابرة .مقطع من لوحة رخامية بارزة كانت جزءا من نصب نيرايد في كسانتوس بآسيا الوسطى وهي الآن في المتحف البريطاني بلندن

أن تظل باقية على الزمن وأن تحتفظ ببهائها وشهرتها .ولذلك يبدو هيرودوت من بعض النواحي مكملا لشعراء الملاحم .فإذا كان شاعر الملحمة يروى مآثر الأبطال ، فإن المؤرخ يروى أعمال البشر .

وقد ترتب على هذا الفضول الذى لاتخمد جذوته من جانب هيرودوت الباحث والرحالة أن اتسع إطار العمل التاريخى اتساعا كبيرا فلم يعد يقتصر على الأساطير وقوائم الأنساب والبيانات التاريخية - الإثنوغرافية عن الشعوب والمجتمعات .وعلى الرغم من أن هذا المؤرخ كان يرمى إلى تسجيل كل مايمكن تسجيله فقدكان عليه أن يحد مجال اختياره وأن يكتفى بذكر الوقائع التى يريد أنقاذها من النسيان ، فماكل شىء جدير بالتخليد عند مؤرخ جعل دأبه تسجيل "ماهو رائع وجليل من الأعمال" وكان هيرودوت على علم بالمكانة التى تحتلها فى تواريخه استطرادات المؤرخ القصاص الطويلة .بل لقد اعترف بذلك فكتب ذات مرة يقول : "لقد طاب لقصتى منذ البداية أن يدخلها الاستطراد" ولاينبغى لتفهم هذا الموقف أن نرجع إلي معايبرنا الحديثة ولاحتى إلى المؤلفين الإغريق اللاحقين الذين كانوا يكتبون للقراء دون غيرهم، وكانت كتبهم بالتالى تصميما من كتب هيرودوت .وذلك أن العمل الذى يتجه أولا إلى جمهور من المستمعين ولايتجه إلى القراء إلافى وقت لاحق يخضع لمقتضيات الشفاهة لافى بنائه فحسب بل فى اختيار مادته.ولايكفى فى مثل هذا العمل أن تكون تفاصيله ذات دلالة أومثير للإعجاب من الناحية التاريخية ، بل يجب كذلك أن تروق للناس وأن تحرك مشاعر الجمهور بقدر مااستثارت فضول الراوى سواء تناولت الجليل أوالحقير من الأمور .

ولكن ماهى المادة الأساسية التى يعالجها هيرودوت ؟ لقد خصص جزءا كبير من عمله لتاريخ وعادات الشعوب التى أدمجت فى أمبراطورية فارس أوالشعوب التى حاربها الفرس بلاطائل مثل الصقالبة ، وذلك بالأضافة إلى الأحداث المرتبطة بالمدن الإغريقية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد .غير أن الكتاب يبلغ ذروته بالنزاع الذى نشب بين الإغريق والفرس ، والذى يستغرق عرضه أقل من نصف "التواريخ" ككل .

وهيرودوت لايتحدث إذن عن شعب واحد ، ولاعن مدينة إغريقية واحدة ولاعن بلاد اليونان جميعا .وهو لايقيم الحواجز ولايبدى ازدراء لأحد .إنه باختصار لايفرق فى الحقيقة بين الإغريق وغيرهم ، أي من كانوا يسمّون "برابرة" . فقد ولد فى فترة سادت فيها النسبية الثقافية بفضل مذهب السوفسطائيين ، وكان ينتمى إلى منطقة تقع على الحدود الفاصلة بين العالم الشرقى والعالم الغربى .ولذلك كان موقفه من الثقافات الأخرى مزيجاً من الفضول والأهتمام بل الاحترام .

غير أنه كان ينظر إلى هذه الثقافات بنظرة الإنسان الإغريقى .وكان يزمن بمفهوم يونانى تماما مؤداه أن الشخص الآخر هو الصورة العكسية للذات ، وهو إذن يصور سلوك الشعوب الأخرى على أنه نقيض لسلوك الإغريق .فمن الملاحظ عند المصريين أن "النساء هن اللاتى يذهبن إلى السوق يشتغلن بالتجارة ، بينما يبقى الرجال فى البيت للاشتغال بالنسيج . . . والرجال يحملون الأثقال فوق رؤوسهم أما النساء فيحملنها على أكتافهن ". . .

وينتهى هذا السرد لأوجه الاختلاف بين المصريين واليونانيين كما يلى : "الإغريق يكتبون حروفهم ويصفون الأحجار الصغيرة التى يستخدمونها فى الحساب بتحريك أيديهم من اليسار إلي اليمين .وأما المصريون فيفعلون العكس : إنهم يكتبون ويحسبون من اليمين إلى اليسار ، وهم إذ يفعلون ذلك يدّعون أن كتابتهم صحيحة وأن الأخرين هم الذين يكتبون بالمقلوب ."

واتباع أسلوب المقارنة يبدو هنا طريقة للتصنيف ، وبالتالى طريقة للفهم .ولكن هيرودوت لايغفل أوجه الشبه فهو يبرزها بأمانة كما فعل فى وصف أهل أسبرطة فهو يقول ان عاداتهم لدى موت ملوكهم "هى نفس عادات برابرة آسيا" وان هذا الشعب "يشبه المصريين اذ أن المنادين وعازفى الناى والطهاة يتوارثون حرفهم أبا عن جد" .

واذا كان هيرودوت لايذهب مثل تيوسيديد الى حد القول بأن الإغريق كانوا يعيشون فى الماضى كما يعيش البرابرة فى عصره ، ويقيم مسافة فاصلة بين العالمين فانه لايعتبر هذين العالمين كتلتين متباينتين إحداهما أدنى من الأخرى فى كل شىء أوأقل تقدما عنها من الناحية الثقافية.وهو يعزو إلى البرابرة بالرغم من أختلافهم عن الأغريق ، كثير من الابتكارات، ويرى مثلا أن آلهة اليونان من أصل مصرى قديم ، وأن الحضارة المصرية أعرق من حضارة الإغريق ، كما يعترف للفرس بعديد من الفضائل .

"وتنتهى التواريخ" بحكاية ذات دلالة .فقد روى هيرودوت أن ملك الفرس أراد أن يصرف الفرس عن فكرة الإقامة فى بلاد أرضها خصبة فقال لقواته :"لقد فضل الإغريق الاحتفاظ بحريتهم بالإقامة فى أرض جدبا: على أن يكونوا عبيداً يزرعون سهولا خصبة لحساب الغير" ونحن اذن بإزاء حقيقة قررها ملك الفرس وإن كانت تصدق على الأغريق فى المقام الأول .كذلك روى على لسان الفرس مناقشة عن خير أشكال الحكم : الديمقراطية أوالأوليجاركشية (حكم الاقلية) أوالملكية .إن الشخص الفارسى عند هيرودوت إنسان أجنبى وعدو ولكنه لايختلف كل الاختلاف عن الشخص الإغريقى بل إن من الممكن نظريا على الاقل أن يكون على شاكلته ، كما أن الاغريق يشبهون "البرابرة" من بعض النواحى .

هذا ولم يحاول هيرودوت أن يصف سلسلة من الأحداث الأسطورية أو التاريخية منذ مبتدئها أو بداية من معلم من معالم تاريخ الإغريق التقليدية على نحو ما فعل غيره من المؤرخين اللاحقين ، وكان مجال اهتمامه - أى الحروب الميدية والأجيال السابقة عليها مباشرة - يشمل فترة حديثة نسبيا .أما الاحداث الضاربة فى القدم فقد ترك أمرها للشعراء وخبراء الأنساب .وقد اتخذ الموقف ذاته فيما يتعلق بمصر ففرق بين ماشاهده بنفسه وماانتهى اليه خبره من المصريين، واذا كان قد سعى الى جمع المعلومات من علماء الفرس والفينيقيين والمصريين عن أحداث أسطورية كخطف هيلانة وحرب طروادة فقد كان يبغى بذلك أساساً تحديد المقدمات التى مهدت لحروب الفرس مع الإغريق وذلك بغية فهم أسباب النزاع .

ولقد وجه هيرودوت فن كتابة التاريخ وجهة حاسمة حين قرر أن يصب اهتمامه على الأحداث القريبة التى يمكنه معرفتها بصورة مباشرة ثم جاء تيوسيديد فأمعن السير فى هذا الاتجاه بالتركيز على الفترة التى عاصرها ■

مشاهد من حصار طروادة كما ترى على لوحة للنقوش البارزة من الحجر الجيرى (من القرن الرابع ق .م) ، وكانت توجد فى مرالع تريسا القديم بتركيا ، وهى الان فى متحف الفن بسريسرا .







تيوسيديد الشاعر

بقلم: بول كارتلدج

لانكاد نعرف شيئا عن تيوسيديد إلا القليل الذى شاء أن يبوح به فى الكتاب الوحيد الذى كتبه وإن لم يتممه ، وهو "تاريخ الحرب البليبونيزية" .فلقد ولد حوالى سنة ٤٤٥ قبل الميلاد لأسرة أرستقراطية أثينية ذات ثروة وعلاقات أجنبية قيمة .وكانت الإمبراطورية الأثينية التى تسيطر على بحر إيجة وتصادى الفرس فى أوج قوتها بفضل أسطول حربى يتكون من سفن فيها ثلاثة صفوف من المجاذيف ولكل منها ١٧٠ مجدافا .وكان النظام الديمقراطى الأثينى قد تجدد عندئذ تجديدا جذريا بفضل إصلاحات بيركليز .

وكانت الأمبراطورية والديمقراطية وبيركليز هى المحاور الثلاثة التى أدار عليها تيوسيديد عرضه الأخاذ للحرب التى نشبت بين أثينا وإسبرطة (فيما بين ٤٣١ و ٤٠٤ ق .م . وإن كانت القصة قد توقفت فى منتصف جملة عند صيف سنة ٤١١) .

وقد اشترك الراوى هو نفسه فى الصراع الأيديولوجى والعسكرى ، ولكن مشاركته كانت غير عادية .ففى عام ٤٢٤ ق .م . انتخبته الجمعية الديمقراطية للمواطنين الأثينيين جنرالا (استراتيجوس) ، ولكن العام لم ينصرم حتى نفى لخطأ لم يرتكبه .

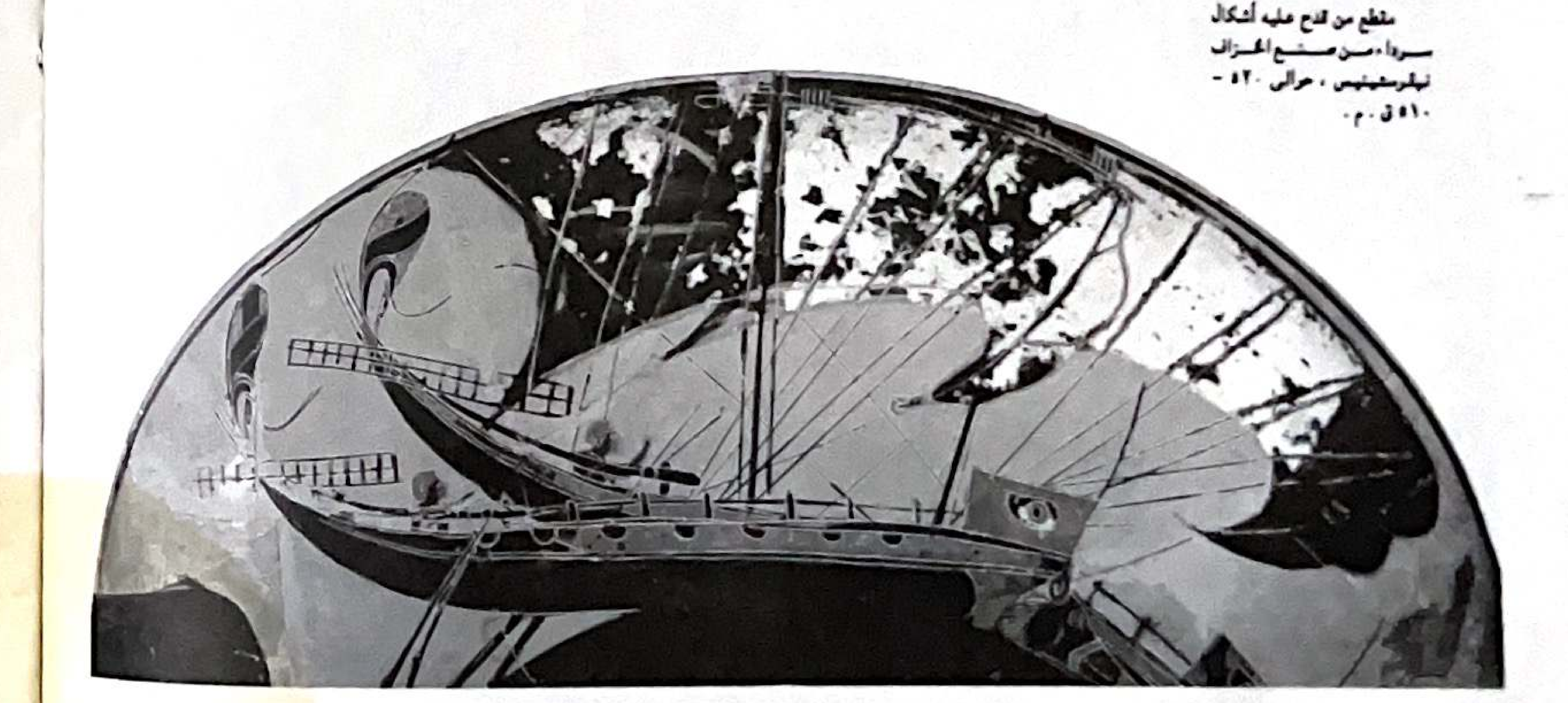
وبقى فى منفاه حتى انتهت الحرب ، وأتيح له فيما ادعى أن يفيد من قدرته على رؤية الأمور من الجانب الآخر - أى الجانب الإسبرطى .إلا أن موضوعيته التى تباهى بها لم تمنعه من أن يكيل الثناء لبيركليز لمزاياه كرجل دولة وأن يدين بلا هوادة جنون الشعب الأثينى وقواده الديماجوجيين . فيعبر من خلال ذلك عن آرائه بشأن مصيره ومصير أثينا السياسى .

وقد أراد تيوسيديد لتاريخه أن يكون "إنجازا باقيا على مر الزمان" وأن يرى كذلك . ولقد تحققت له هذه الرغبة لسببين : أولهما أن تيوسيديد - كما يوحى عنوان الكتاب - قد استطاع أن يفرض على الأجيال التالية رؤيته للصراع . فلقد كانت من الحرب وجهة النظر الإسبرطية "حربا أثينية" ، حربا ضد أثينا وحلفاء إمبراطوريتها ورعاياها .وقليل هم الذين شاركوه عندئذ رأيه أن الإسبرطيين هم الذين بدأوا الحرب وأنها كانت حربا واحدة متصلة لمدة سبعة وعشرين عاما ولم تكن جولتين من القتال استمرت كل منهما عشر سنوات وتخللتهما سبعة أعوام من السلم غير المستقر . ولكن أسلوب تيوسيديد من القوة بحيث يصعب أن نختلف معه لا فيما يتعلق بالصراع العسكرى بين أثينا وإسبرطة فحسب ولكن فيما يتعلق أيضا بالنصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد أو مايسمى العصر الذهبى لأثينا فى عهد بيركليز .

والسبب الثانى هو الخطب والمناقشات التى وردت فى "تاريخ" تيوسيديد والتى تستند فى معظم الحالات على معلومات جديرة بالثقة بشأن ماقيل فى الواقع أو ما طرح من أفكار بصفة عامة ، ولكن تيوسيديد إعاد صياغتها فى جميع الحالات بكل ما يمتاز به من قوة الذهن وتفرد الأسلوب .ومازال الجدل يدور على نطاق واسع بشأن العلاقة الحقيقية بين هذه الإبداعات التيوسيديدية وبين أصولها المفترضة وبشأن المقصود منها فى نطاق بنية العمل ككل.وقد أشتد الجدل بصفة خاصة حول ما يسمى "المحاورة الميلية" أى النص الذى أورده تيوسيديد للمفاوضات التى أجريت سرا فى ٤١٦ - ٤١٥ ق .م . بين القيادة العليا الأثينية وبين الحكومة الأوليجاركية لدولة جزيرة ميلوس فى بحر إيجه .ومن الواضح أن تيوسيديد ماكان ليعرف على وجه الدقة كيف جرت المفاوضات ، وأن الموضوع فى حد ذاته ليس بذى أهمية تاريخية قصوى . ولذلك أرى أن تيوسيديد "المؤرخ العلمى" يفسح المجال هنا على أوضح نحو لتيوسيديد الناقد الأخلاقى والمنظر السياسى والشاعر الناثر التراجيدى .

فما هوالدرس ذو القيمة الباقية الذى أراد تيوسيديد أن يلقننا أياه بطريقته هذه فى العرض الدرامى وهى الطريقة الغريبة "علينا" كل الغرابة ؟ يبدو لأنه أراد أن يعلمنا أن بنى البشر بوصفهم أفرادا فى دول لايراعون فى سلوكهم بازاء الدول الأخرى المعايير الخلقية التى يسلمون بها عادة فى نطاق مجتمعاتهم ، وإنما يراعون مصالحهم الجماعية كما يفهمونها بمعنى الأمن والنفوذ والمنفعة الاقتصادية .فأين عسانا نجد فى عالم اليوم موضعا واحدا من مواضع النزاع المحتمل لايصدق عليه ذلك القانون الحديدى ؟ ويبدو إذن أن تيوسيديد سيبقى معاصرا على الدوام .

Cartledge
بول كارتلدج .
مؤرخ بريطانى . محاضر فى الدراسات القديمة بجامعة كيمبردج (المملكة المتحدة) ألف كتاب "Sparta and Lakonia : A Regional Survey" ("إسبرطة ولاكونيا : استقصاء إقليمى" ١٩٧٩) وكتاب "Agesilaos" (أجيسيلاوس ١٩٨٧)



مقطع من قدح عليه أشكال سروا ، من صنع الخزاف نيكوسثينيس ، حوالى ٥٢٠ - ٥١٠ ق . م .

المؤرخون الصينيون وديوان التأريخ

بقلم : هيو داتونج

أعلاه كانج جى مخترع علامات الكتابة الصينية كما يرى فى لوحة القرن السابع عشر . إلى اليسار ، الامبراطور كسوان دى مقطع من لفيفة للصور عنوانها "الأباطرة الثلاثة عشر" ، وتنسب الى يان ليبن (القرن السابع الميلادى)

يروى أن أول مؤرخ صينى كان يدعى كانجى ، وكان فى خدمة هوانج دى (الألف الثالث ق .م .) الإمبراطور صاحب الشهرة الأسطورية . ويقال إنه اخترع ال "شى" أى العلامات التى مكنت من كتابة التاريخ .وجدير بالذكر أن العلامة التى تدل على كلمة "شى" يمكن أن تمثل ايضا يدا ولوحا مصنوعا من الخيزران للكتابة .

وكان المؤرخ فى ذلك الزمن القديم شخصية جبارة يكتنفها الغموض .فهو عالم فلك وضارب رمل ، ومكلف

سيما كيان
أبو التاريخ الصينى

سيما كيان (١٤٥ - ٨٦ ق .م .) هو مؤسس التاريخ فى الصين .وقد خلف أباه فى منصب كبير المؤرخين فى بلاط الإمبراطور وودى من أسرة هان الغربية (٢٠٦ ق .م .- ٩م) .ويتضمن عمله الأعظم أى كتاب "شيجى" ("ذكريات تاريخية") الذى ألفه فى ٢٠ سنة مائة وثلاثين فصلاً ومايقرب من ٥٢٨٠٠٠ علامة ويشمل ٢٤ قرنا من التاريخ بداية من حكم أول امبراطور فى بداية القرن الأول قبل الميلاد .

وينقسم الكتاب إلى خمسة أجزاء مختلفة .وهناك أذن حوليات تتعلق بالأسر الحاكمة ("بنجى") ، وحوليات تتعلق بالأسر ذات المكانة الرفيعة ("شيجيا")، وجداول الأنساب ("بياو") ورسائل (شو) فى الطقوس والفلك والتقويم والاقتصاد والجغرافيا والأعمال الهيدرولية وتراجم (ليزهران) لفئات مختلفة من الافراد : الساسة والعلماء والاستراتيجيون والكتاب والفرسان الجوالون والأطباء والمنجمون والتجار .

ويفضل هذه التراجم (٧٠ فصلا) وجه سيما كيان التاريخ وجهة جديدة .فهو قد أضاف إلى التاريخ العام الذى يتناول العهود المتتالية لأبناء السماء (الأباطرة) والى التاريخ الذى يصف الوقائع تاريخ الأفراد الذى ينم عن الأوضاع الاجتماعية والمهنية .

وفى ذلك العصر كان كبير مؤرخى البلاط مازال منجما يعنى بالتقويم .ولكن سيما كيان أعطاه دورا أشبه بدور المؤرخ المعاصر .وقد حذا حذو كنفوشيوس مؤلف "حوليات الربيع والخريف" فاستند فى أعماله إلى البحوث المطولة واختيار الوثائق بطريقة نقدية .

وقد بدأ دراسة النصوص القديمة بداية من سن العاشرة لكى يكون جديرا بالمهمة التى تنتظره .وفى سن العشرين غادر مكتبه وقام برحلة طويلة فى الأقاليم حيث صادق كثيرا من الرجال المرموقين ودرس المواقع الشهيرة واتصل بكبار العلماء .

وبذلك مهد الأرض لتأليف مصنفه الضخم .وسرعان ماأصبح كتابه "شيجى" نموذجا لتاريخ الأسر المالكة بفضل أسلوبه الفذ وفكره الثاقب .وصار جميع المؤرخين الذين خلفوه يتوخون المثل الأعلى كما حدده سيما كيان : "تحليل الصلة بين الكون والبشر تحليلا عميقا وإدراك مغزى التغيرات التاريخية ، وبذلك يمكن للمؤرخ أن يكون مذهبه الخاص"

هو داتونغ

من ثم بتطبيق أقوال العرافة ومراقبة أعمال الملك ووزرائه والإشراف على حفلات التنصيب وعلى عبادة السماء والأرض والأسلاف .

وجرت العادة أن يحيط بالإمبراطور كلما عقد اجتماع فى القصر مؤرخان يراقب كل منهما على حدة ، أقواله وأفعاله ، وتمخضت تلك الملاحظات اليومية عن كتابين تاريخيين رئيسيين أولهما "شانجو" ("أقوال الملوك السالفين") وثانيهما مجموعة حولية عنوانها "شونكيو" ("حوليات الربيع والخريف") .

كما كان للتاريخ علاقة وثيقة مع الفلسفة . فكان لاوتسى ، مؤسس المذهب التاوى (القرنين السادس والخامس ق .م .) ، مسؤولا بصفته مؤرخا رسميا عن محفوظات القصر الملكى فى عهد أسرة "تشو" وكان كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق .م .) الفيلسوف والمفكر يضطلع فيما يروى بتصنيف حوليات مملكة "لو" .وقد صار التفسير الذى وضعه المؤرخ الكفيف كيومنج على تلك الحوليات فى عداد الروائع .

أما الرجل الذى يعد أبا التاريخ الصينى فهو "سيما كيان" (١٤٨ - ٨٦ ق .م .) وكان كبير المؤرخين في بلاط الإمبراطور الشهير "هان وودى" ("١٤١ -٨٧ ق . م .) وذلك أن كتابه "شى جيى" ("مذكرات تاريخية") الذى خصص أكبر جزء منه للتراجم ، قد جدد وجهة النظر التقليدية للتاريخ بحيث جعل للنشاط الإنسانى وللفرد مكانة رئيسية .وأضحى ذلك الإطار فيما بعد نموذجا يحتذى فى كل المؤلفات التى تؤرخ للأسرة المالكة التالية.ومن هذه المؤلفات تاريخ رسمى شهير هو "هان شو"

("تاريخ أسرة "هان" ") الذى كتبه "بان جو" (٣٢ - ٩٢ ق . م .) بالاشتراك مع عائلته .

وكان كتاب "شيتونج" ("عموميات حول التاريخ") الذى ألفه ليوزيجى (٦٦١ - ٧٢١م) مؤرخ الإمبراطورة وو زيتان (٦٦١ - ٧٢١م) أول مؤلف ظهر فيه النقد التاريخى.فقد أشترط صاحبه أن تتوافر فى المؤرخ ثلاث صفات أساسية هى الموهبة الأدبية والمعرفة وروح النقد .كما ميز ست مدارس مختلفة وصنف كل الأعمال التاريخية فى نوعين رئيسين هما : الحوليات والتراجم .

وهناك تاريخ جامع آخر هو "زيذهى تونجيان" ("مرآة عامة لإرشاد الحكام") وهو من تأليف سيما جوانج (١٠١٩ - ١٠٨٦) .وتتضمن هذه المجموعة الضخمة من الحوليات ٢٩٥ فصلا وتشمل ١٣٠٠ سنة من التاريخ حتى القرن العاشر الميلادى .والكتاب عمل مشترك تعاون فيه مع جوانج ثلاثة مؤرخين لايقلون عنه شهرة .وقد جمعوا أكبر عدد ممكن من الوثائق فى المكتبات الرسمية والخاصة وصنفوها بحسب الموضوعات ثم رتبوها زمنيا .وبعد ذلك تولى سيما جوانج عملية الاختيار الأخيرة وحرص فى ذلك على أستخلاص أنفع المعلومات التى تهم الإمبراطور من تلك المواد الهائلة .

فلما كان عهد مملكتى الجنوب والشمال (٢٢٢ - ٥٩٨) بما فيه من اضطربات سياسية اقتصر دور كبير مؤرخى البلاط على مجال الفلك والتقويم . بينما ألقيت مهمة تسجيل أعمال الإمبراطور على عاتق سكرتارية من المؤرخين .



أعلاه تاى زونغ ثانى إمبراطور من أسرة تانغ (القرن السابع الميلادى) صورة رسمها على الحرير فنان مجهول من فترة كنغ (القرن السابع عشر - القرن العشرون) .

أعلاه إلى اليمين خطة مدينة شنجدو عاصمة أسرة شو الحاكمة فى فترة الممالك الثلاث (القرن الثالث) . وهى اليوم عاصمة مقاطعة سيشوان فى وسط الصين.



في هذا الرسم الصيني (القرن التاسع عشر) تصوير للقاء الذي جمع فيما جاء في الأساطير بين كنفوشيوس ولاو - تزو (الاوتزي) .

ديوان التأريخ

وفي القرن السابع ، أبدى الأباطرة الأول في أسرة تانج اهتماما شديدا بفكرة التاريخ كمرآة تستفاد منها الدروس.فكان أن أنشأ الإمبراطور تاي زونج (٦٢٦ - ٦٥٩) "الشايجون" أي ديوان التأريخ ليضطلع في المقام الأول بتصنيف التواريخ .وصارت هذه المهمة تسند لموظفين يعينون لهذا الغرض بعد أن كانت تسند لمؤرخين بالوراثة.وكان للإمبراطور في أغلب الحالات الكلمة العليا في هذا الديوان الذي كان رؤساء التحرير فيه هم كبار الوزراء .

وكان لهذا التنظيم البيروقراطي آثار حاسمة في الأزمنة التالية .وذلك أن حرية المؤرخين قيدت في كل ما يتعلق بالشؤون السياسية والرأي العام ، وكان على المكلف بإدارة هذا العمل الجماعي الضخم أن يكون في نفس الوقت عالما وإداريا بارعا ، وهما صفتان قلما تجتمعان في شخص واحد.وذلك أن تقسيم العمل على هذا النحو كان يعني أن يغرق المؤرخون في بحر من الوثائق .يضاف إلي ذلك أنهم كانوا يختارون من بين عامة المثقفين دون الاهتمام بمعرفة التاريخ ، وهو ما كان يعني أضفاء طابع رسمي على الخلط التقليدي بين الأدب والتاريخ .

ونظرا لرداءة المؤلفات الصادرة عن الديون الامبراطورية، ظهرت في موازاتها كتابات تؤرخ للأسر المالكة .وفي الفترة الممتدة من أسرة تانج حتى أسرة يوان (١٢٧٧ - ١٣٦٧) تحول موقع الاهتمام في التأريخ بحيث وضعت مؤلفات من نوع جديد مثل "توتجديان" الذي ألفه دوي، وكان أول تاريخ عام عن النظم والمؤسسات - و"تونجزي" (دراسات مونوغرافية عامة) الذي ألفه زينج كياو (١١٠٤ - ١١٦٢) و"وينكسيان تونج كاو" ("نقد عام للوثائق") الذي ألفه "ما دونلين" (١٢٥٤- ؟) وكانت هذه المؤلفات موسوعات حقيقية ، فقد كان كل منها يتضمن أجزاء حول موضوعات متنوعة كالاقتصاد والسياسة والتعليم والأديان والعادات بل واللغة .

وفي الفترة الانتقالية بين أسرة منج وأسرة كنج (١٦٤٤ - ١٩١١) ألف هوانج زونجسكي (١٦٠٩ - ١٦٩٥) كتاب "منجرو كسريان" ("رسالة عن تعاليم المدارس الكونفوشية في عهد المنج") ، فكان أول دراسة متعمقة حول تاريخ المذاهب والمفكرين .كما ورد في كتاب "ذوشي فانجيو جياو" لجوزويو (١٦٢٤ - ١٦٨٠) تحليل للصلات المتبادلة بين التاريخ والبيئة الجغرافية .

وأبدى أباطرة المانشو ، وخاصة كانجسي (١٦٦٢ - ١٧٢٢) وكيانلونج (١٧٣٦ - ١٧٩٥) اهتماما شديدا بكتابة التاريخ .فكان هناك ديوان للتأريخ لأسرة منج التي أطيح بها لتوها ، وألف من هذا التاريخ ٣٣٦ مجلدا في٨١ سنة .وتولت دواوين أخرى كتابة تاريخ الأسرة الحاكمة والتاريخ القومي والحياة اليومية للإمبراطور .

وينطوي هذا النوع من الوثائق على ثروة ضخمة من المعلومات المفيدة للمؤرخ المعاصر .فقد كانت كتابتها تقتضي تسجيل كل ما يفعله الامبراطور ومايلبسه ومايأكله بداية من لحظة مغادرته جناحه الخاص عند مطلع الشمس .وكان موظفو المحفوظات الإدارية يتولون تلخيص واستكمال هذه الملاحظات التي نشرت في ظل الإمبراطور التالي تحت عنوان "شيلو" أي "وثائق صحيحه" .

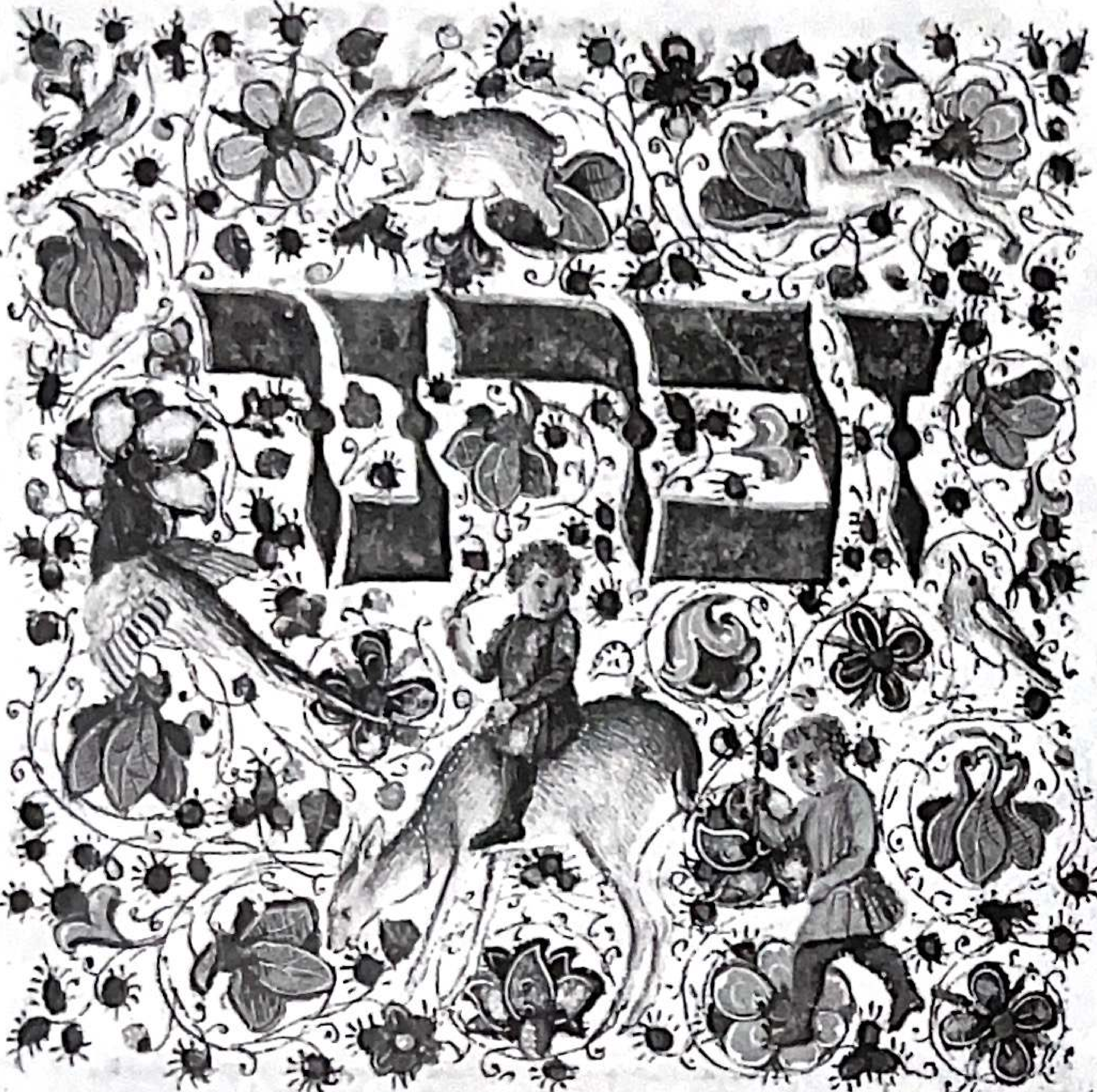
كما ألفت مصنفات هامة تضم نصوصا قديمة وحديثة ، وذلك مثل "جوجين توشو جيشنج" و "سيكو كوانشو" اللذين استنسخ فيهما مايزيد على ٣٠٠٠ مؤلف .وثمة عمل ضخم آخر أمر بتأليفه الأباطرة ، وهو جمع المونوغرافات المحلية - الجغرافية والإثنوجرافية والأركيولوجية - التي كتبت في كل أنحاء الصين .

وبلغ دور المؤرخ الرسمي ذروته في ظل كيانلونج.وعندما تدهورت أسرة مانشو بدأ زوال معظم التقاليد الصينية في مجال التأريخ .وكان كتاب "كنجشيجاو" ("مشروع تاريخ رسمي لأسرة كنج") بمثابة الأغنية الأخيرة للبجعة بالنسبة لتلك التقاليد . ■

Datong هير داتونج
. مؤرخ صيني . يجري بحوثا بمتحف القصر الإمبراطوري في بكين

اليهود في
مواجهة ماضيهم

"تذكر . . ."



الكلمة الأولى في الدعاء الذي يبدأ بقول : "تذكرنا في الحياة" كما رسمت في مخطوطة يهودية مزخرفة من شمال إيطاليا (حوالي ١٤٥٠ - ١٤٧٠) .

بقلم : ليونيل كوشان

ناشد سيدنا موسى قبيل وفاته بقليل شعبه ألايهمل ماضيه ، قائلا له :

"اذكر أيام الدهر وتفهم سني جيل فجيل .سل أباك ينبئك ، وأشياخك يحدثوك"

(سفر تثنية الاشتراع ،٣٢ ، ٧) .

ورغم هذه المناشدة أبدى اليهود عدم ميلهم إلى دراسة الماضي وكتابة التاريخ .وفي السبعينات من التاريخ الميلادي كتب فلافيوس جوزيفوس تاريخ المقاومة اليهودية ضد روما ، ثم ألف بعد ذلك بعشرين سنة تقريبا تاريخه العام "الآثار اليهودية" .

ثم مر حوالي ألف وخمسمائة سنة إلى أن أشرف القرن السادس عشر على نهايته فظهر أول مؤلف للتاريخ اليهودي وهو : "تاريخ ملوك فرنسا والسلاطين العثمانيين" للحاخام يوسف ها - كوهين (١٤٩٦ - ١٥٧٨) ، الذي أوجز مهمته في العبارات التالية : "في شعبي بأسره لم يظهر حتى الآن في إسرائيل مؤرخ واحد يماثل فلافيوس جوزيفوس . . . فقد صمت جميع المؤرخين ، أجل صمتوا حتى ظهرت أنا يوسف" .

فكيف نفسر هذا الصمت الذي طال خمسة عشر قرنا بين فلافيوس جوزيفوس ويوسف ها - كوهين ؟ وهذ السؤال يكتسي أهمية أكبر لو عرفنا أن اليهود بصفة عامة يعتبرون أنفسهم شعبا تاريخيا بمعنى الكلمة .أفلا يشكل كتابهم الأساسي ، وهو التوراة التاريخ الوطني للعبرانيين ؟ وألايتجلى لهم ربهم أساسا على صعيدين : صعيد العلاقة الخاصة وصعيد التاريخ ؟

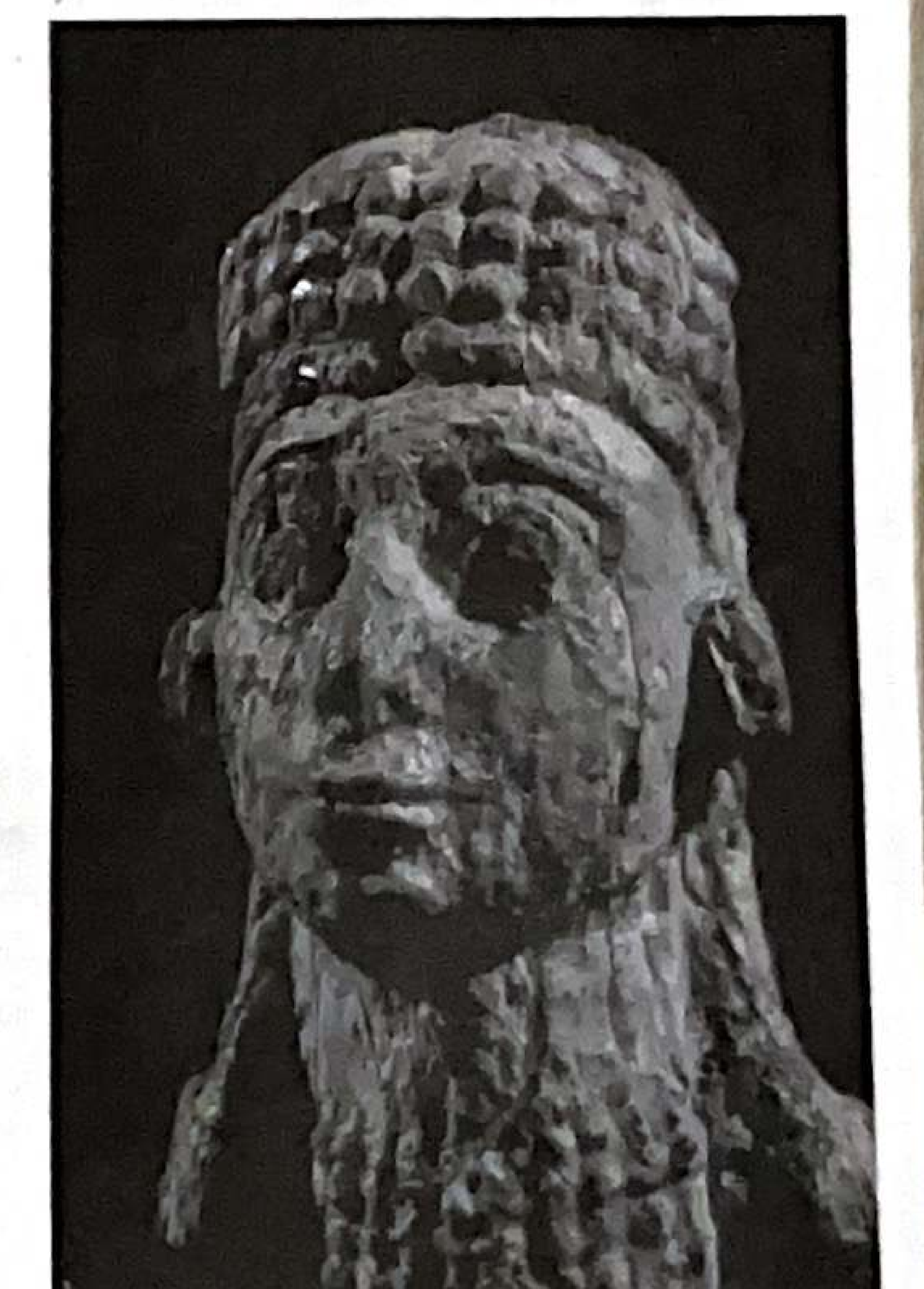
حضور الماضي

ولكن هنا وعلى وجه التحديد تكمن المشكلة .فالمفهوم التوراتي لاينظر إلى الماضي كحركة انطلقت من نقطة

معينة ، ولكن كظاهرة دورية متكررة .وهى تحدث دائما بتواتر قمرى وفقا للتقويم اليهودى الذى يحفل بسلسلة من الأعياد التى لاتحتفل بالأحداث الماضية إلابقصد إحيائها . ومن ثم فإن نص "الهجادا" الذى يتلى كل عام فى عيد الفصح أحتفالا بالخروج ، يأمر المؤمنين بأن : "كل واحد فى كل جيل لابد وان يعتبر أنه قد خرج هو بنفسه من مصر". وتفسر أهمية هذا الماضى الحى دائما عدم أهتمام اليهود نسبيا بتاريخهم اللاحق للتوراة .فقد أستنفدت الكتب المقدسة كل ما هنالك من فضول تاريخى ، لأنها تشرح لليهود من أين جاءوا ، ومن هم ، وإلى أين يسيرون . واليهودى يخضع تاريخيا للقضا ، والقدر نظرا لأن تاريخه قد كتب بالفعل - فوحى سينا ، يحدد له دورا حاسما في النظام المستقبلى للعالم ، حيث "تبارك بك جميع عشائر الأرض" (سفر التكوين ١٢ ، ٣) .

فإسرائيل يعرف غايته مهما كانت آلامه ومحنه ، كما أن مجى ، مسيحه المنتظر مسجل فى صميم النظام العالمى .وفى مواجهة هذه اليقينيات التاريخية التى تقررت وتأكدت فى التوراة والتلمود ، يبدو ما حدث منذ ذلك التاريخ لغوا لامعنى له ولايستحق الوقوف حياله ، فهو لن يضيف بأى حال من الأحوال ، أى شىء هام لما أنزل من قبل .فالمنشأ والمستقبل والنهاية كلها مشكلات قد حلت عند اليهود .

وهذا على وجه التقريب هو الموقف الذى ساد القرن السادس عشر ، باستثناء مؤلفى الحوليات والتذكار .وفضلا عن الكتاب الرائد ليوسف ها - كوهين رأينا عدة محاولات مختلفة لكتابة التاريخ اليهودى مثل : "شبح يهودا" للحاخام سولومون بن فرغا ، الذى صدر فى تركيا نحو سنة ١٥٥٤م ، وكتاب "الأنساب" لإبراهام زاكوتو (١٥٠٤م) ، و"سلسلة الأحبار" لجداليه بن يحيى (البندقية ١٥٨٧م) ، و"غصن داود" لدافيد غانس (براغ ١٥٩٢م) .وفى إطار نوع مختلف شيئا ما ظهر "نور العيون" لأزاريا دى روسى ، الذى صدر فى مانتو عام ١٥٧٣م ، وهومن الكتب ذات الأهمية التاريخية الكبرى .وفى حين سعى زاكوتو وابن يحيى إلى كتابة تاريخ



أعلاه رسم يرد فى إنجيل مستعرب من القرن العاشر ويصف أحد أوبئة الطاعون العشرة التى حلت بمصر .وترى مياه النيل وقد تحولت إلى دم .

إلى اليمين ، تمثال من العاج لرأس إمرأة يهودية (القرن التاسع -القرن الثامن ق . م) .

لليهود الأرثوذكسى طبقا للتقاليد الحاخامية ، فإن روسى تطرق إلى نقاط معينة مثل الكتابات اليهودية الهلنستية لفيلون السكندرى (وهى كتابات كان الحاخامات قد تجاهلوها عمدا) ، ومصادر توراة السبعين والظهور المتأخر للتقويم العبرى ، والقيمة التاريخية للفولكلور والأمثال .ومن محاسن روسى الأخرى ، معرفته المتعمقة بالمصادر غير اليهودية القديمة أو الوسيطة أو المعاصرة ، وهو ما يميزه عن أبناء ملته .أما كتاب "شبح يهودا" فإنه من وجهة نظر التاريخ الحديث ، يسترعى الانتباه برؤيته الواقعية.ففيه يتساءل ابن فرغا أساسا عن آلام اليهود وما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد التى تعرض هو نفسه لها عندما طرد من أسبانيا .ويتجلى تجديده عندما يرفض تفسير هذه الآلام بأنها من تدبير العناية الإلهية أوبوصفها قصاصا سماويا ، بل ويفسرها على أساس علاقات القوى التاريخية وموقف اليهود أنفسهم .فقد كتب يقول : "يدوم المنفى بشكل طبيعى من جراء التعصب الدينى ،ورغبة الملك (الأسبانى) فى إخضاع كل شىء لمعتقداته" ولكنه يرى كذلك أن اليهود بغطرستهم ورفضهم الاختلاط ، وإيمانهم الكاذب ، قد تسببوا إلى حد ما فى الآلام التى حاقت بهم .

وهؤلاء المؤرخون اليهود الذين ظهروا فى القرن السادس عشر لم يتركوا خلفا مباشرا لهم .وكان روح

HISTOIRE
DE LA
GVERRE DES IVIFS
CONTRE LES ROMAINS
RESPONSE A APPION
MARTYRE DES MACHABEES
PAR
FLAVIVS IOSEPH
ET SA VIE ESCRITE PAR LVY-MESME
AVEC
TRADVIT DV GREC
PAR MONSIEVR ARNAVLD D'ANDILLY.
A PARIS.
AVEC APPROBATION ET PRIVILEGE.

أعلاه صفحة الغلاف فى طبعة فرنسية (١٦٦٨) من كتاب فلافيوس جوزيفوس "تاريخ الحرب اليهودية ضد الرومان"



صفحة من إنجيل عبرى زخرفة يوسف صارفاتى من سيرفيرا بأسبانيا (١٢٩٩).

ليونيل كوشان
Kochan

مؤرخ بريطانى متخصص فى التاريخ اليهودى والأوروبى كان قبل التقاعد يعلم التاريخ اليهودى فى جامعة واريك (المملكة المتحدة). واشتغل قبل ذلك بتدريس التاريخ الأوروبى فى جامعتى ادنبرة وايست أنجليا. ألف كثيرا من الكتب والمقالات عن التاريخ اليهودى والأوروبى.

علم اليهودية

وشهدت الحياة الفكرية ليهود أوروبا الغربية ثورة حقيقية فى أوائل القرن التاسع عشر .وكانت هذه هى البداية الفعلية للاهتمام بتاريخ اليهود فى حد ذاته . ومن الرواد فى هذا الميدان إسحق ماركوس جوست بمؤلفه "تاريخ اليهود" الذى كتبه "للوساطة بين المعبد والثقافة العلمية" أوبمعنى أخر للترفيق بين التقاليد اليهودية والتاريخ العالمى .ولكن هذه المحاولة المفيدة تبدو متراضعة أمام أهمية حركة "علم اليهودية" الذى أنشأته جماعة من المثقفين اليهود الشبان فى جامعة برلين .فقد نادوا فى بيانهم الذى أصدروه عام ١٨٢٢ ، بضرورة أتباع نهج "علمى" حيال اليهودية يرمى إلى "توضيح موضوع الدراسة وإعادة عرضه بشكل منظم ومن جميع جوانبه ، ولذاته دون غرض آخر . . . ، وتحليل اليهودية مع مراعاة جوهرها ودون التمسك بأى أفكار مسبقة ، ودون الأكتراث بالنتائج النهائية" .

وأقرب عمل إلى هذا المثل الأعلى هو بلاشك العمل الذى قام به ليوبولد زونز (١٧٩٤ - ١٨٨٦) .فهذا العالم الذى تخرج من جامعتى برلين وهاله يرى أن الماضى اليهودى لاينفصل عن الأنواع الأدبية الأخرى حيث تعبر روح اليهودية عن نفسها أحسن تعبير .ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة كتابة تاريخ تلك الأنواع - المواعظ والأشعار الدينية ونصوص الطقوس - إلى جانب النهوض بدراسات هامة فى مجال التراجم ولاسيما ترجمته لأزاريا دى روسى ولم يخلف زونز أى تلاميذ له .ولكن أعماله ساهمت بشكل كبير فى أزدهار البحث التاريخى حول اليهودية حتى يومنا هذا .ورغم احتدام الجدل بين مختلف الباحثين ، فقد توطدت إلى حد كبير الموضوعية التى نادى بها علم اليهودية ، ولكنها أثارت كثيرا من مشاعر الرفض .لقد عاب صمويل دافيد لوزاتو على الباحثين العلميين المولعين بالموضوعية تخليهم عن يهوديتهم بدراسة ماضى أسرائيل كما لو كانوا يدرسون تاريخ آشور أو مصر أوبابل أوفارس .وأليس فى التخلى عن المفهوم اليهودى الذى يقضى بضرورة التوافق بين الأفكار والأفعال خذلان ضمنى للدين ؟

ثم تبنى هذه الحجة نخمان كروشمال (١٧٨٥ - ١٨٤٠) الذى رأى أن النزعة التاريخية هى أكبر تحدى يواجه اليهودية .فكيف يتسنى التوفيق بين صفة الخلود والأبدية لكلام الله ، وبين الحقيقة القائلة بأن الإنسان هو الذى نقل إلينا هذا الكلام كما جاء فى التاريخ ؟ ولكننا إذا ما أنكرنا هذه الحقيقة كما يقول كروشمال ، أفلا نخشى أن نظهر للأجيال الشابة السة البائدة للفكر اليهودى ، ومن ثم صرفه عن اليهودية ؟

ومن الممكن أن يقال ويصرف النظر عن هذه المنازعات أن فن التأريخ اليهودى قد أسهم إلي حد كبير فى تجديد "الأنوار" الموجه نحو القيم العلمية والتقدم ، لايتلاءم على أى حال مع دراسة الحالات الخاصة .ومثل ذلك ما قاله موشى مندلسون فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو المثل الرئيسى للحركة اليهودية المستوحاه من عصر "الأنوار" - أومايسمى "الهكالا" - عندما أعلن دون مواربة "أن التاريخ يجعلنى دائما أتثاءب" . ومع هذا فقد أتضح فى هذا الوقت بالذات أن معرفة تاريخ وماضى الشعب اليهودى تعتبر ضرورية لتكوين "اليهودى الجديد" ، والذى سعت الهكالا إلى بعثه . والكتاب المعاصر الوحيد الذى يستحق الذكر هو "تاريخ اليهودودينهم" (فى خمسة أجزاء ، ظهرت من ١٧١٦ حتى ١٧١١) للبروتستنتى الفرنسى جاك بازناج .غير أن مشروع ترجمته إلى الألمانية لم يتحقق وعى اليهود بخصوصيتهم وتأكيدها .

وقد تلا هذا المنعطف التاريخى الحاسم ، ظهور ثلاثة مؤلفات تاريخية ذات أهمية كبيرة، وهى مؤلفات كل من : جراتز فى ألمانيا (١٨١٧ - ١٨٩١)، ودوبنو فى روسيا (١٨٦٠ - ١٩٤١) ودى سالوبارون فى الولايات المتحدة (١٨٩٥ - ١٩٨٩) .وقد طمح كل منهم وعلى طريقته إلى كتابة تاريخ "عالمى" للشعب اليهودى ، وإن اختلفت أساليبهم فى الكتابة .

فقد رأى جراتز ، خريج جامعتى برسلاو وبينا ، أن أبعاد اليهودية وهى أبعاد روحية وسياسية فى آن واحد ، ومن ثم فهو يبين لنا أن التاريخ اليهودى يشتمل على مراحل أولى سياسية فى جوهرها ، وتنتهى بتدمير معبد أورشاليم فى ٥٨٧ قبل الميلاد ، ومرحلة ثانية أميل إلى الدين تفضى إلي تدمير المعبد الثانى فى سنة ٧٠ . أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الشتات التى تصادف وقوعها مع ظهور أدراك متزايد بالذات ، والتى استمرت حتى إقامة دولة دينية . والواقع أن "تاريخ اليهود" الذى كتبه جراتز بين ١٨٥٣ - ١٨٧٦ لايفى بطموحاته تماما ، ولكنه يظل ضروريا لفهم هذه الفترة .



أما دوبنو فقد رأى أن مفهوم زونز وجراتز بأنه مفهوم روحى ، وانتهج لنفسه فى كتابه الضخم "التاريخ العالمى للشعب اليهودى" (فى عشرة أجزاء ، ظهرات أولا بالألمانية ١٩٢٥ - ١٩٢٩) ، وجهة نظر اجتماعية مع التركيز على أشكال استقلال اليهود فى مختلف مراكز الشتات .وبذلك أوضح لنا كيف أنتقلت الدينامية اليهودية على مر العصور ، من فلسطين إلى بابل ، ومن أسبانيا وفرنسا إلى المانيا وبولندا ولتوانيا .ويرى دوبنو أن جميع أشكال التنظيم "شبه الحكومية" هذه قد أتاحت لليهود الاحتفاظ بهويتهم العرقية دون التخلى عن ميولهم نحو مطالبهم الإقليمية .

أما العمل الرئيسى الذى قام به بارون ، وهو"التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود" (ثلاثة أجزاء ، ١٩٣٧ وطبعة ثانية فـ١٨ جزءا ١٩٥٢- ١٩٨٣) ، فإنه لم يقدم الرؤية الشاملة للتاريخ التى كان جراتز ودوبنو يطمحان إلى تحقيقها فى مؤلفيهما .إلا أنه زود كتابه بالعديد من الوثائق وأفاد بطبيعة الحال من التقدم الذى أحرزه مؤخرا علم التأريخ وهو يرفض رفضا باتا وقاطعا المفهوم "المتباكى" لتاريخ اليهود ، الذى يرتكز على محور الاضطهاد والآلام لتمجيد الواقع القومى اليهودى .سواء لدى يهود الشتات أو داخل دولة إسرائيل . وقد أسعفه فى ذلك ماتحلى به من مميزات فى مجال التحليل ، وماأظهره من اهتمام موسوعى بالوثائق .

وإلى جانب هذه الأسفار الرئيسية ، مافتئت الدراسات التأريخية اليهودية تزداد ثراء بفضل المؤلفات المتخصصة التى كتب معظمها باللغة العبرية مؤرخون جامعيون إسرائيليون وغيرهم من المؤرخين بلغات مختلفة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا .

تذكر الصور فى هذه الصفحة بالمراحل الرئيسية فى التاريخ اليهودى كما يراها العالم الألمانى هينريش جراتز .
أدناه قصة دانيال ونبوخذ نصر كما صورت علي منسوجة جدارية من القرن السادس عشر .
أدناه إلى اليمين ، نموذج لأورشليم كما كانت قبل هدم المعبد الثانى.
إلى اليمين، شارع طريق الزهور فى الحى اليهودى بقرطبة (أسبانيا)





بقلم : فردريش فلهلم جراف

المسيحية بين المطلق والنسبى

علاقة الإيمان المسيحى بالتاريخ هى المشكلة الأساسية فى كل المذاهب اللاهوتية الحديثة .وذلك انه لم توجد منذ عصر التنوير نظرية لاهوتية إلا وقد حاولت أن توفق بين ادعاء المسيحية فى العصور القديمة أنها الحقيقة وبين المعارف الحديثة فيما يتعلق بالنسبية التاريخية التى تتصف بها كل الخبرات والأفكار البشرية .

وقد تزايد الوعى بصعوبة هذا التوفيق .ففي القرن الثامن عشر أشار لسنج – أحد أعلام التنوير الألمانى – "إلى الفجوة الضخمة المفزعة" التى تفصل الإنسان المعاصر عن المسيحية فى صورتها البدائية .ثم زادت الفجوة اتساعا فى القرن التالى .فقد أدرك الفلاسفة وعلماء اللاهوت والمؤرخون عندئذ أنه ما من حقيقة تاريخية إلا وهى جزئية ونسبية ، وأنه ليس فى التاريخ من معايير مطلقة تصلح لكل الناس فى كل العصور .ولكن الدين المسيحى يقرر أن يسوع المسيح يحتل مكانا مطلقاً فى التاريخ .وهو يدعى أنه حق بصورة مطلقة وملزم لكل الناس أيا ما كان مكانهم أو زمانهم .وكلما فكرنا فى جوهر العقيدة المسيحية من ناحية وفى الطبيعة الجزئية للوقائع التاريخية من ناحية أخرى ، زادت المسافة فيما بين الدين والتاريخ .وعبادة الله هى محور الديانة المسيحية شأنها فى ذلك شأن أى ديانة

أخرى .ومن الملاحظ أن الله يوصف أيضا بأنه "مطلق" فى اللغة التقليدية للفلسفة واللاهوت الغربيين ، وهى اللغة التى تأثرت تأثرا شديدا بمفهوم الواقع كما وجد فى العصور اليونانية القديمة وفى فيزيقا أرسطو بصفة خاصة .ومن ثم كان تصور الله كقوة خالقة غير محدودة وغير مشروطة أبدية خلقت الكون ثم خلقت الانسان وجعلته من مرتبة أعلى .وكان تصور الله كصاحب سيادة بغير حد وككائن يفوق مخلوقاته على نحو لا متناه .ويترتب على ذلك أن التعارض بين الله والعالم ، بين التعالى وبين الأبدية والزمن تعارض أساسى فى الميتافيزيقا الغربية .فالمطلق يوصف بأنه كذلك لأنه يباين ويفارق المتناهى والعالم والإنسان ، ويفترض فى مقابل ذلك أن هذا العالم المخلوق أو العالم التاريخى الذى يتكون مما هو متناه ونسبى يظل دائما معتمدا على المطلق ويدين بحقيقته لله وحده .

وقد فهم المتصوفة المسيحيون بصفة خاصة الصلاة بوصفها وسيلة لاندماج الإنسان فى الأبدية ، ولانعزاله عن مجرى التاريخ بحيث يدرك غايته الحقيقية أو غايته الأبدية . وبهذا المعنى كانت تقوى المسيحى تنطوى دائما على التقليل من شأن التاريخ ومن شأن عالم الأشياء النسبية .

مفهوم التاريخ فى الكنيسة الأولى

وعلى هذا الأساس بنى فقهاء الكنيسة القديمة نظرياتهم عن التاريخ والبشرية والكنيسة .فقد جمعوا فى توليفة احدة مختلف التصورات التى وجدوها عن سيادة الله على لتاريخ العالمى فى التراث اليهودى "العهد القديم الخاص لمسيحيين" وفى الأناجيل ورسائل الرسل فى العهد خديد.

وهكذا تصور بولس الرسول التاريخ وفقا لتفسير "هوتى يرتبط فيه خلق العالم على نحو وثيق بخلاص لبشر .وجعل ليسوع المسيح مكانا أساسيا فى هذا التصور .فهو المركز المطلق لتاريخ العالم ، أى المركز الذى يضفى وحده المعنى على كل أعمال البشر .وبناء على ذلك رأى القديس بولس أن تاريخ العالم قد بدأ بفعل الخلق .ولكن الخطيئة الأصلية أخلت بالنظام الإلهى فوقع العالم فى الفوضى .يشهد على ذلك الكوارث الكبرى التى حلت ببنى إسرائيل كما يروى العهد القديم .فلماجاء يسوع المسيح أشرق على العالم عهد جديد من الخلاص .وقد وصف بولس الرسول هذا الخلاص بصور تاريخية محددة فهو يعنى زوال النزاعات الطبيعية بين الرجل والمرأة ونهاية العداء بين الشعوب ، وتحرير العبيد من ربقة الرق الاجتماعى التى تشدهم الى سادتهم ، ونهضة البشر جميعا وقد أصبحوا أحرارا بحق .

ومن الممكن إذن أن نصف تفسير بولس للتاريخ فنقول

الفسيفساء فى قبة التكوين بكنيسة القديس مرقس فى البندقية (أوائل القرن الثالث عشر)

انه "تاريخ للخلاص" فتاريخ البشرية بأكمله موجه نحو عودة المسيح أونحو تحقيق الخلاص الآتى بفضله .ويمكن أن يقال أيضا أن رؤية بولس للتاريخ رؤية غائية ، فالغاية التى يتجه نحوها تاريخ العالم هى أن يتحقق لكل إنسان الخلاص الذى أتاحه الله للبشريه من خلال المسيح.

ولهذا السبب كانت الكنيسة فى رأى بولس توجد فى مركز التاريخ .فهى المؤسسة التى تنقل إلى الناس نبأ الخلاص الذى يأتى به المسيح .ومن خلال عملها تقترب الغاية القصوى للتاريخ كما يريده الله وعودة المسيح وبناء مملكته العالمية القائمة على السلام وعلى ضوء هذه الغاية لاأهمية لتاريخ العالم والتاريخ السياسى للدول .فعمل الكنيسة وحده هو صاحب الدور الحاسم فى التقدم الحقيقى نحو مملكة الله.

وكانت المسيحية الأولى تقوم على الإيمان واليقين بأن يسوع عائد عما قريب وأنه يدفع التاريخ نحو خلاصه النهائى .وبناء على ذلك لم يوجه لاهوتيو الكنيسة القديمة كبير اهتمام فى البداية إلى عوارض تاريخ الكنيسة .ولم يصبح هذا التاريخ موضوعا هاما للتفكير اللاهوتى إلانتيجة للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون على يدى الإمبراطورية الرومانية وأنتصار المسيحية عليها ، كما تمثل فى صورة رمزية فى تعميد قسطنطين فى سنة ٣٣٧ م .

ثم جاءت أول خلاصة جامعة لتاريخ انتشار المسيحية على يدى المؤرخ واللاهوتى يوسيبيوس القيصرى فى بداية القرن الرابع .وكان لكتابه عن "التاريخ الكنسى" دور أساسى مازال يؤديه حتى العصر الحديث .وظلت طريقة يوسيبيوس فى ربط أحداث التاريخ الكنسى ربطا وثيقا بتفسير عام للتاريخ العالمى نموذجا يحتذيه مؤرخو الكنيسة الكاثوليكيون لقرون .

وكان تفسيره حاسما بصفة خاصة فى تقرير نقطتين على وجه التحديد .أولا أن تاريخ الكنيسة يبدأ بميلاد يسوع الناصرى وأعماله .فلم يكن التاريخ اليهودى والتاريخ الذى سبق المسيحية بصفة عامه إلا تمهيدا من صنع الله لهذا الحادث الأساسى الذى جاء بخلاص البشرية .ومن هذا المنطلق رأى يوسيبيوس أن الأديان السابقة على المسيح قد مهدت لتلقى رسالته . وذلك أن المسيحية ليست فى الواقع دينا جديدا .ولكنها كانت هى الدين الأزلى وإن لم يوح بها كاملة قبل المسيح .ولم تكن اليهودية والديانة اليونانية فى نظر يوسيبيوس "دينين أجنبيين" ، وإنما كانتا شكلين من أشكال المسيحية التى لم تكتمل .وكذلك ربط يوسيبيوس التاريخ الذى سبق ظهور المسيح بتاريخ الكنيسة .

أما النقطة الثانية التى قررها يوسيبيوس فهى أن تاريخ العالم يقوم على نزاع متصل بين الخير والشر ، أو بين الله والشيطان .وهذا التاريخ الذى يتسم بالصراع حافل إذن بمعارك دائمة بين الأخيار الذين يخلصون لله ولكنيسته والأشرار الذين يتبعون الشيطان ويحاربون الكنيسة .وكان يوسيبيوس على أقتناع عميق بأن الله سينصر كنيسته وبأن الحقيقة الإلهية ستنتصر فى جميع هذه المعارك التى تخاض ضد الأعداء الخارجين وضد الهراطقة بصفة خاصة .وتاريخ الكنيسة فى نظر يوسيبيوس هو تاريخ قوة لاتفتأ تتعاظم بعزوها إلى ازدياد القرب من مملكة الله .وهى تصبح بناء على ذلك محور التاريخ العالمى .

الإصلاح وظهور التاريخ النقدى للكنيسة

غير أن زعماء الإصلاح فى القرن السادس عشر وخاصة مارتن لوثر وجون كالفن وضعوا موضع الشك العميق تلك الرؤية الكاثوليكية التى تبدو فيها الكنيسة مؤسسة منتصرة متزايدة القوية .فقد أنبثق الإصلاح نتيجة لحركة من الاحتجاج على الكنيسة القائمة . ونودى فى هذه الحركة بـ "حرية الفرد المسيحى" (لوثر) للاحتجاج على سلطة البابا وهيمنة القس على النفوس .وقيل أن الخلاص لايأتى للبشر عن طريق الكنيسة ولكن عن طريق كلمة الله



لوحة "وعظ القديس بولس" للفنان لوقا دى تومى من مدرسة سينا (إيطاليا القرن الرابع عشر)

وبها دون غيرها إذ يستطيع كل أنسان أن يطلع عليها إذا قرأ النصوص المقدسة .وكانت عبارة "حرية الفرد المسيحى" تعنى بالنسبة لزعماء الإصلاح إذن التقليل من أهمية الكنيسة ، فهى كمؤسسة تأتى فى المقام الثانى بعد الفرد التقى .

وكان إخضاع الكنيسة لهذا القيد اللاهوتى يعنى فى الوقت نفسه ارتفاع منزلة العالم وازدياد كرامته .ورئى أن الإيمان المسيحى لايصبح حقيقة حية عن طريق التقوى بمعزل عن الناس وإنما يتحقق فى أوضاع الحياة التى وضع الله الناس فيها .وكان الإيمان الحى يعنى فى نظر أصحاب الإصلاح التسليم بالعالم والإقبال عليه بهمة .

كما أدخل الإصلاحيون تغييرا عميقا على وجهة النظر السائدة فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة .فقد تناولوا هذه المؤسسة بالنقد .وأصبح تاريخها كما كتبه المؤرخون

البروتستانت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يقوم على محاولة لإسباغ الشرعية على البروتستانتية وتعزيز حقها ضد استبداد كنيسة روما .وحلت محل تاريخ الانتصار كما كتبه يوسيبيوس صورة أخرى للكنيسة وهى تتفكك من الداخل .فكلما عظمت قوتها زاد بعدها عن الإيمان الحقيقى .وقلب رأسا على عقب ذلك الفارق الذى أقامه يوسيبيوس بين أولى السلطة والهراطقة ، وبين المسيحيين الأخيار وأعداء الله .وصارت السلطات الكنسية هى التى توضع فى كثير من الأحيان فى وضع أعداء المسيح .وأصبح تاريخ الكنيسة يتضمن مكانا مركزيا لأهل التقوى الذين نشروا الحقائق الأساسية للمسيحية .

وأصبح تاريخ الكنيسة نتيجة لحركة الإصلاح جهدا علميا ونقديا معارضا للتراث الموروث عنها .ولم يقتصر المؤرخون على نقد نزوعها إلى الهيمنة وإنما أعربوا أيضا عن شكهم المتزايد فيما يتعلق بالمصادر التى استندت إليها الكنيسة فى أضفاء المشروعية على قوتها وتبرير غلبة السلطة البابوية على سلطة الإمبراطور .وكان هذا النقد يرتكز على أساس أيديولوجى ، فالهدف هو فيما قيل تحرير المسيحى العادى من حالة العبودية الزائفة بإزاء الكنيسة .وبفضل هذا النقد والتفسير المتعمق للكتاب المقدس مهد التاريخ البروتستانتى الطريق للبحوث التاريخية والنقدية التى تميز بها العصر الحديث والتى ترسخت فى عصر التنوير ثم فى القرن التاسع عشر .

الطابع المطلق للمسيحية وتاريخ الأديان

وكان عصر التنوير إيذانا بحدوث تحول ضخم فى تفسير المسيحية وتاريخها .ففى فترة التوسع الأوروبى وما ترتب عليه من إقبال على البلدان والثقافات الأخرى أخذ المثقفون الأوروبيون يكتشفون أديانا عديدة وتراثات دينية شتى كانوا يجهلونها .وكان عليهم أن يعترفوا بأن المسيحية من وجهة النظر التاريخية ليست إلا دينا بين أديان أخرى ، وقد ظلوا فى بداية الأمر يدّعون دون نقد أو تمحيص أن المسيحية هى وحدها الدين الحق ، وأن سائر الأديان ليست إلا أشكالا زائفة من الوعى الدينى أو أنها على أفضل تقدير أشكالا جزئية بالنسبة للحقيقة المسيحية .ولكن المثقفين الأوروبيين كانوا كلما زاد اهتمامهم بتاريخ الأديان غير المسيحية ازدادوا وعيا بأوجه الشبه العديدة وبالتأثيرات المتبادلة بين المسيحية وغيرها من الأديان .وكان عليهم عندئذ تفسير تاريخ المسيحية مع ربطه بالتاريخ العالمى للأديان .

فما هى النتائج التى ترتبت على هذا الوضع بالنسبة لادعاء الكنيسة القديم أن الحقيقة فى حوزتها ؟ أوليس ينبغى للمؤرخ الحديث أن يدحض الفكرة التى مؤداها أن الرسالة المسيحية صالحة لكل البشر ؟

ونشب نزاع حول هذه المسألة وخاصة فى نطاق البروتستانتية الألمانية فى االقرن الثامن عشر .فقد حاول فلاسفة وعلماء لاهوت ينتمون إلى ما يسمى "المثالية الألمانية" -مثل شليرماخر وشلنج وهيجل - أن يواجهوا



الأشكال الناجم عن التفكير التاريخى النقدى الجديد ففسروا المسيحية على أنها "الدين المطلق" .وأدرجت المسيحية من ثم فى أطار تاريخ عالمى دون تضحية بدعواها التقليدية أنها تمثل الحقيقة .فالمسيحية من جهة ليست إلا دينا بين الأديان ينبغى فهمه بوصفه شكلا خاصا ومحددا من ظاهرة عالمية هى ظاهرة الدين ، وهى من ناحية أخرى تنفرد بأنها الدين الذى تحققت فيه بالكامل الغاية القصوى لكل دين ألا وهى الوفاق بين الله والإنسان

صورة تخفية للمسيح كما ترى على جزء من سقف سرداب كومودبلا للموتى فى روما (منتصف القرن الرابع)

. أدناه إلى اليمين لوحة "الجنة والجحيم" من صنع مدرسة بولونيا . القرن الخامس عشر .



فردريش فلهلم جراف

ألمانى.

Graf

عالم لاهوت وأستاذ اللاهوت المنهجى والتاريخ المعاصر لعلم اللاهوت بجامعة أوجسبورج (ألمانيا الاتحادية) .ومن بين مجالات اهتمامه البروتستانتية والديمقراطية فى ألمانيا وأسس النظرية والأخلاق الدينية .ألف كثيرا من المقالات والكتب عن اللاهوت وعن فلسفة الأديان .

وقوام هذا التفكير وضع مفهوم شامل للدين من شأنه أن يحيط بكل الأشكال الدينية التى ظهرت حتى ذلك الوقت فى تاريخ البشرية ، ثم بسط هذا المفهوم وتفصيل تلك الأشكال وفقا لمخطط تاريخى يرتكز على التطور .فهناك أنتقال من الأديان البدائية إلى الأديان الطبيعية ومن ثم إلي الأديان الثقافات .وبذلك يبدو التاريخ كعملية تتجه نحو غاية أخيرة هى التحقيق الفعلى لماهية الدين الشاملة .

وقد أنتشر هذا التفكير التطورى على نطاق واسع فى جميع البلدان الأوروبية فى القرن التاسع عشر .وصورت فيه المسيحية بوصفها أرقى أشكال الأديان الثقافات ، وبوصفها دين الحرية والشخصية الإنسانية .واعتبرت على نحو مباشر أو غير مباشر مرادفة لمفهوم الدين الشامل .ويرجع نجاح هذا التفسير إلى أنه يسمح بإخضاع الأديان المختلفة للنظر التاريخى النقدى دون التخلى عن ادعاء التفوق للمسيحية .وبذلك أمكن استخدام هذا النموذج الفكرى فى تبرير الاستعمار الغربى .إلا أن ما حدث منذ القرن التاسع عشر من تزايد سريع فى معارفنا بشأن تاريخ الأديان قد حطم ما افترضته المثالية من أن مسار التاريخ يتوقف على عقل متعال ثابت لايتغير .وكلما زاد وعى المفكرين بخصوصية كل دين من الأديان اشتد إعراضهم عن محاولة فهم تاريخ الأديان كعملية تطورية واحدة ومحاولة الإحاطة بجميع هذه الأديان فى نطاق مفهوم واحد .وحلت محل الإيمان المثالى بوحدة معقولة تشمل التعدد رؤية تعددية للتاريخ لم يعد ينصب فيها التأكيد على انضواء جميع الأديان تحت مبدأ واحد وإنما تؤكد فردية كل هذه الأديان .

ولابد إذن لعلم التاريخ الذى يتسم بروح نقدية حقيقية أن يتخلى عن فكرة "الدين المطلق" فهى فكرة دجماطيقية أوغير تاريخية .وقد نوقشت النتائج المترتبة على هذا بالنسبة للدين المسيحى نقاشا مستفيضا فى أوروبا وفى الولايات المتحدة .

وقد أدى عالم اللاهوت الألمانى إرنست ترولتيش - وهو بروتستانتى ليبرالى - دورا هاما فى هذا المجال .فقد رفض فكرة "الدين المطلق" فى محاضرة شهيرة نشرت فى١٩٠٢ بعنوان "الطابع المطلق للمسيحية وتاريخ الأديان" .ورأى أن للمسيحية "قيمة عظمى نسبية" مع الاعتراف بأن هذه القيمة لايمكن إثباتها بمنهج تاريخى دقيق .وهو لم ينكر أن المسيحية تدعى أنها تمثل الحقيقة .ولكن الحقيقة الوحيدة فى نظره لاتتجلى إلافى أشكال دينية لاحصر لها . ■

أدناه صورة لمارتن لوثر من صنع الفنان الألمانى لوكاس كراناك الأب (١٤٧٢ - ١٥٥٣).
أدناه إلى اليسار، صورة لجون كالفن رسمها له أحد طلابه وهو يحاضر.



الصفحة المقابلة، رسم لمدينة إيرانية ورد فى مخطوطة من القرن السادس عشر لكتاب «الرحلة» الذى يؤرخ لحملات السلطان العثمانى سليمان العظيم.

كتابة التاريخ فى الإسلام

بقلم : عبد السلام شدادى

أول ما يلفت النظر فى الكتابة التاريخية الإسلامية هو ضخامة الإنتاج فيها. وهو إنتاج لم يطبع منه حتى اليوم إلا قدر يسير، ومازالت تتكشف منه نصوص جديدة. فبداية من النصف الثانى من القرن الأول للهجرة (أى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى" حتى القرن الثالث عشر (القرن التاسع عشر) ظل هذا الانتاج مستمرا دون أنقطاع تقريبا يتفاوت نشاطه من فترة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر وإن وجد حيثما تغلغل الإسلام. وكانت اللغة المستخدمة هى العربية فى بداية الأمر، ولكن كانت هنالك أيضا كتابات بالفارسية والتركية وبلغة الملايو. ورغم أن معظم المؤلفين فى هذا المجال كانوا من المسلمين، فقد كان هناك أيضا مؤلفون مسيحيون وخاصة فى مصر والشام.

وهناك سمة هامة أخرى وهى تنوع هذا اللون من ألوان الكتابة تنوعا شديدا. من حيث الأشكال والأنواع : فهناك تواريخ عالمية اوعامة أو دراسات مونوجرافية، وأشكال تقوم على الحوليات أوالممالك أوالأنساب، وكتب الطبقات، وكتب التراجم وتواريخ محلية. وتنوع من حيث المجالات : إذ يتناول التأريخ الحياة الدينية والسياسية أو الإدارية والاجتماعية، والأنشطة العلمية والأدبية والفنية، والرحلات وخطط المدن والآثار، والكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة ... ويتسع نطاق الاهتمام التأريخى ليشمل الحضارات غير الإسلامية مثل غرب أوروبا وشمالها والهند والصين والشرق الأقصى وأفريقيا.

ويشمل علم التاريخ كل المعلومات التى تتعلق بالإنسان وبعلاقاته ببيئته الاجتماعية والثقافية وعلاقاته بالله. وهو كما أكد ابن خلدون (انظر الإطار الوارد فى صفحة ٣٩) يستهدف "السوقة والأغفال" كما يستهدف "الملوك والأقيال". ومثل هذا التصور للتاريخ بما فيه من شمول عالمى واتساع نطاق جمهوره يعد تمهيدا للمفاهيم التاريخية الحديثة.

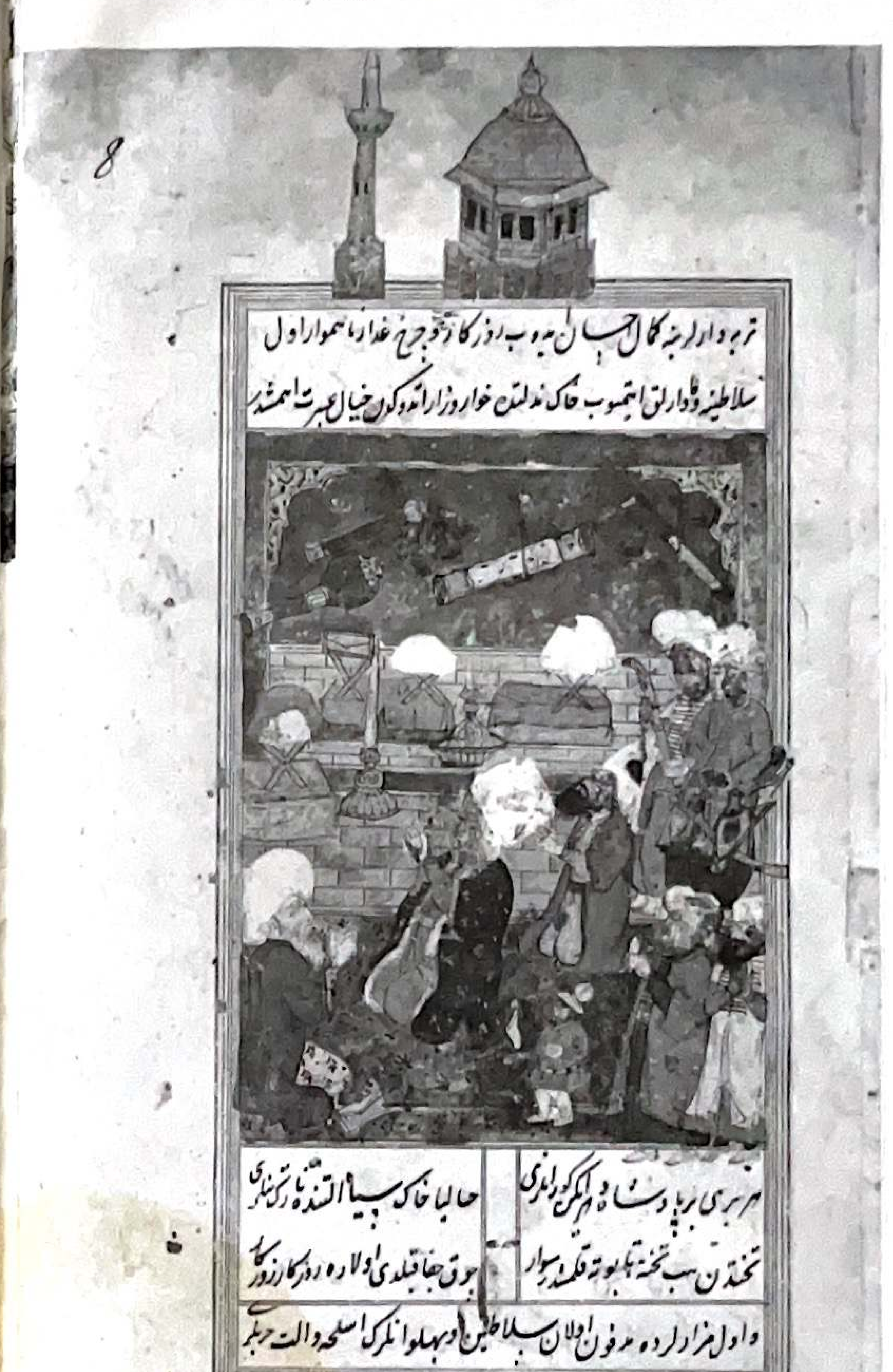
أهمية الزمن

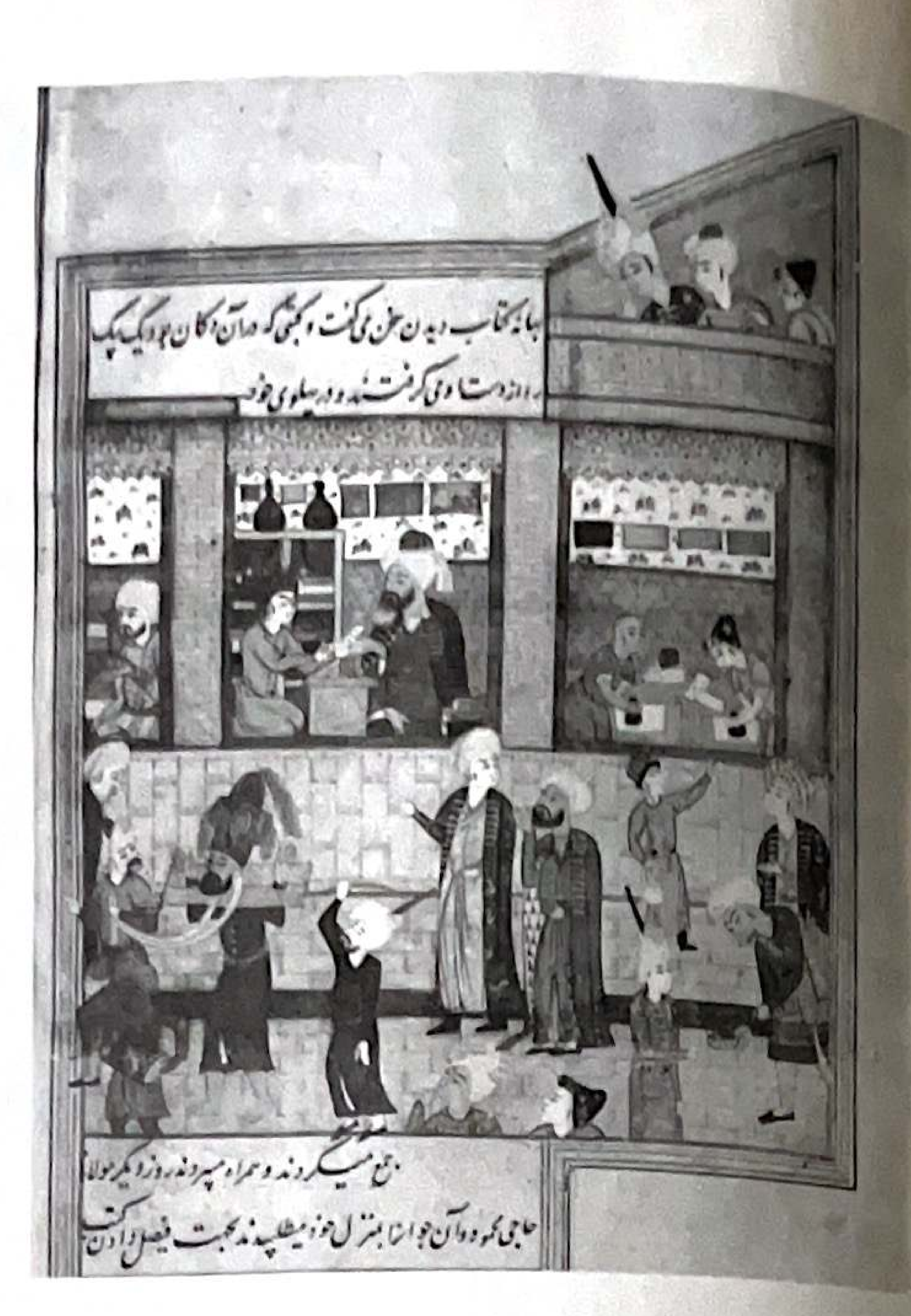
ومن أوجه الشبه الأخرى التى تقرب التأريخ الإسلامى من المفاهيم الحديثة هو أنه أولى منذ فترة مبكرة أهمية كبيرة للتسلسل الزمنى. فقد تكونت حصيلة ضخمة من المعارف المتعلقة بالزمن فى الثقافة الإسلامية منذ القرن الأول حتى القرن الرابع للهجرة. وكان لهذه الحصيلة المعرفية مصادرها فى التراث العربى السابق، ولكنها أثريت بإضافات فارسية وهندية ويونانية ومصرية أفادت من دراسات علماء الفلك والجغرافيين. ومن ثم كان العمل التأليفى العظيم الذى اضطلع به البيرونى فى النصف الأول من القرن الخامس / الحادى عشر انجازا فذا بفضل طابعه الموضوعى. وقد ضم أضخم وأدق حصيلة معرفية توافرت عن الزمن قبل العصر الحديث.

وقد أفاد المؤرخ المسلم فائدة كبيرة من هذه المعارف. فبداية من القرن الثانى /الثامن بدأ يشيع بالتدريج تحديد التواريخ واتباع الترتيب الزمنى وتكوين الجداول. وأصبح تحديد التاريخ عن طريق بيان السنة والشهر واليوم قاعدة تكاد تكون مطلقة فى حالة معظم الوقائع التى يرويها المؤرخ. وهو ما يختلف على نحو واضح عن كتابة التاريخ فى الغرب خلال العصر الوسيط حيث لم يعم استخدام نظام للتسلسل الزمنى إلا بداية من القرن الحادى عشر وحيث بقى الترتيب الزمنى للأحداث التاريخية الكبرى غير مستقر حتى القرن الرابع عشر .

الأصالة والتصور

وتتمثل أصالة التأريخ الإسلامى كما يتمثل تصوره فى مفهومه عن المعلومات التاريخية أوالخبر. فالخبر هو الواقعة أوالحادثة عندما تصبح موضوعا للخطاب أوعندما





أعلاه صفحة مخطوطة من التراجم النثرية والشعرية كبار المتصوفة. وهى من تأليف حسين بيقرة (١٤٦٩ - ١٥٠٦)، آخر ملوك التيموريين فى فارس.

إلى اليمين رسم من مخطوطة تركية تصف رحلة (١٦٠٥ - ١٦٠٦)

الى اليسار صفحة من مخطوطة عربية من القرن الثانى عشر تصف العادات فى الصين والهند.

Cheddadi

عبد السلام شدادى.

مؤرخ مغربى، يعلم التاريخ بكلية العلوم التربوية فى الرباط. يعد حجة فى دراسة ابن خلدون، وقد ترجم إلى الفرنسية السيرة الذاتية للمؤرخ العربى الكبير ومقتطفات من تاريخه (دارسندباد باريس ١٩٨٧).

تقص فى "رواية". والمؤرخ لايعنى بالوقائع فى حد ذاتها، وإنما يتخذ نقطة انطلاقه من معطى أساسى هو الرواية كما وردت فى الأقوال المكتوبة الشفهية التى ينقلها شاهد حى (يمكن أن يكون هو المؤرخ نفسه). ومهمته الأولى إذن هى توثيق وتحقيق الروايات بنقد الشهود وسلسلة الإسناد. وليس من هدف المؤرخ أن يبحث عن الوقائع أو أن يتحقق منها، ولكنه يسعى إلى تلقى المعلومات وتصنيفها وتنظيمها مع التأكد من صحتها. وقد بقى صدق الروايات فى حد ذاتها موضوعا ثانويا حتى جاء ابن خلدون فاشترط معرفة قوانين العمران (أوالاجتماع البشرى) أساسا للنقد التاريخى .

ولما كان المؤرخ ملزما بأن يقبل الروايات كما ترد فى التراث بكل تفاصيلها فبوسعه أن يرتبها أصنافا شتى وأن ينظمها كما يشاء فى مصنفات تتفاوت ضخامة وصغرا، ولكنه لايستطيع أن يصوغها كما يشاء أوأن يعيد تأليفها أوتشكيلها وفقا لرؤيته للأمور.

وليس فى التأريخ الإسلامى إذن إعادة تأليف للماضى على نحو ما فعل اليونان أو ما حدث في التاريخ اللاهوتى كما كتب فى العصور الوسطى المسيحية. ومن ثم كان عدم التحيز الذى يتصف به التأريخ الإسلامى والذى يقر به الكثيرون. ومن ثم كان أيضا تصوره الثباتى للزمن فالزمن وفقا لهذا المفهوم لايتضمن أى دافع على التطور أوالتقدم ويقتصر دوره على ترتيب تتابع الأحداث من الخارج. وكان ابن خلدون هو الذى أضفى على هذا المفهوم بعدا جديدا عندما درس التجمعات البشرية الضخمة مثل العرب والبربر والفرس والروم (أى اليونان والرومان والبيزنطيين) من حيث تطورها ونشأتها واضمحلالها.

الفترات الكبرى الثلاث

توجت الفترة الأولى التى امتدت حتى القرن الثالث للهجرة بتاريخ الطبرى (انظر الإطار الوارد فى صفحة ٣٨) الذى عنوانه "كتاب الرسل والملوك". ولم يمض وقت طويل فى غضون تلك الفترة إلا وقد أخذ بالتقويم الهجرى على نطاق واسع. كما بدأ تطبيق منهج الإسناد الذى وضع أصلا لدراسة العلوم الدينية فى كتابة السيرة النبوية ورواية الغزوات الإسلامية ثم طبق شيئا فشيئا فى جميع أنواع الرواية.

وظهرت الروايات التاريخية الأولى وتبلورت أحيانا على شكل أنواع مثل المغازى والسيرة والفتوح والأحداث وأخبار الأوائل وأيام العرب والأنساب والمآثر والمثالب وسير العلماء، وقوائم المعلمين وسجلات الأخبار السياسية والإدارية وتاريخ الدولتين الأموية والعباسية ومجموعات رسائل الكتاب. وترسخت شيئا فشيئا عادة تحديد الوقائع والأحداث بدقة واتباع التسلسل الزمنى.

وظهرت مؤلفات عديدة مثل "المغازى" للواقدى "السيرة" لابن إسحق و "الطبقات" لابن سعد و "أخبار الأوائل للدينورى "وأنساب الأشراف" للبلاذرى و "التاريخ"



الطبرى

لم يكن الطبرى (٨٣٩-٩٢٣) هو الذى اخترع فن التأريخ فى الإسلام، ولكنه أشهر ممثليه. فقد بقى تاريخه أى "كتاب الرسل والملوك" مثلا يحتذى لفترة طويلة فهو كتاب للحوليات يروى سنة فسنة تاريخ العالم الإسلامى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وقد واصل الرواية من جاء بعد الطبرى من المؤلفين. كما أعيدت صياغة وصفه للعصر الجاهلى فى نصوص شتى مابين مختصر وملخص. كما ورد نصه الكامل فى مؤلفات أخرى مثل كتاب "الكامل" لابن الأثير فى القرن الثالث عشر وكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير فى القرن التالى.

وقد بدأ الطبرى حياته العلمية بدراسة ما يؤهله ليكون فقيها ومحدثا ومؤرخا. وظل طيلة ثلاثين عاما يتجول بين مدن الشرق الأوسط ويلقاه ليطلب العلم على أكبر الأساتذة فى عصره. ولم يقتصر اهتمامه على التاريخ والتفسير والحديث، وإنما عنى أيضا بالنحو والأخلاق والرياضيات والطب. وقد اشتهر أيضا بتفسيره الضخم للقرآن.

وكان "تاريخ" الطبرى تتويجا لعملية من التطور بدأت فى القرن الأول للهجرة. وهو يرمى الى تنظيم كل ما أنتهى اليه من المعلومات وفقا لسلسلة الرواة مع إخضاع هذه السلسلة للنقد الفاحص الدقيق. وقد صاغ الطبرى مادته التاريخية وفقا لترتيب زمنى صارم. وأضفى مزيدا من الاستفاضة والتنقيح على التاريخ العالمى الذى بدأه الدينورى فى "الأخبار الطوال" واليعقوبى فى كتابه "التاريخ".

وقد أراد الطبرى لكتابه "تاريخ الرسل والملوك" أن يكون تاريخا للعالم منذ بدأ الخليقة حتى عصر المؤلف. والكتاب كما شرح الطبرى فى المقدمة يعنى بصفة خاصة بعلاقات المخلوقات بالخالق سواء أقامت على الطاعة والإيمان أو على العصيان والجحود. وبعد أن يتناول الكتاب إبليس وآدم وبنيه، ينصب الاهتمام على الأنبياء والملوك.

ويفرد الكتاب مكانا للتاريخ الإنجيلى ولكنه لايتعرض للتاريخ اليونانى - الرومانى والبيزنطى ولاللتاريخ الفارسى.

وثمة على أى حال ذخيرة فريدة للمعلومات. فالطبرى كما يقتضى منهجه لايروى أى واقعة إلامصحوبة بمصادرها ومدعمة فى كثير من الحالات بالروايات التى ذكرتها. وهو يتيح لنا من ثم مواد قديمة لولاه لكانت اليوم مفقودة. وفى هذا الصدد كتب المؤرخ فرانز روزنتال يقول إن الطبرى قد جمع فى تاريخه بين "تدقيق عالم الكلام وقريحته التى لاتكل وبين دقة الفقيه وحبه للنظام وفطنة السياسى العليم بالقانون".

عبد السلام شدادى ■

لليعقوبى. وبذلك تألف أدب تاريخى ضخم لم يصلنا منه الاالقليل نسبيا وإن كنا نجد عليه شواهد دقيقة فى قائمة عناوين المؤلفين الواردة فى البيليوغرافيات التى وضعت فيما بعد مثل كتاب "الفهرست" لابن النديم الذى أنجز فى سنة ٣٧٧ هجرية (٩٨٨ميلادية).

وتميزت الفترة الثانية أو الكلاسيكية كما تسمى باشتداد هذه الاتجاهات المختلفة وإن قل الاعتماد شيئا ماعلى منهج الإسناد، وبظهور أنواع جديدة. فبعد الطبرى ألف المسعودى "مروج الذهب" وهو بدوره تاريخ عالمى النزعة وإن كان أقل نفوذا عن كتاب الطبرى. وبداية من القرن الرابع الهجرى أخذ التاريخ طابعا رسميا إلى حد ما وزاد اعتماده على محفوظات الدولة أو محفوظات الأقاليم. وكانت من ثم مؤلفات سلسلة من المؤرخين بدأت بحسن بن ثابت بن سنان الصابى ثم بمسكويه إذ ألف "تجارب الأمم" (تاريخ دولة بنى بويه) والذى تابعه أبو شجاع فى القرن التالى. وتطور تاريخ المدن بحيث أصبح نوعا رئيسيا صدر فى أطاره إنتاج وفير أشهر أمثلته "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى. وتحسنت وتكاثرت

ابن خلدون

لاشك أن ابن خلدون من أكبر المؤرخين والمفكرين فى العالم. وقد أتيح لنا أن نعرف تفاصيل حياته بفضل السيرة الذاتية المطولة التى كتبها. ولد ابن خلدون فى سنة ١٣٣٢ فى تونس لأسرة من كبار موظفى الدولة والعلماء. الذين يرجع أصلهم إلى الأندلس وينحدرون عن سلالة يمنية عريقة. وتلقى ابن خلدون تعليما وافيا فى المجالات الدينية والأدبية والعلمية، وكان أساتذته أشهر العلماء فى المغرب. وكان فى شبابه عندما غزاإفريقية الملك المرينى أبو الحسن الذى دخل تونس فى سنة ١٣٤٨. وفى السنة التالية أودى الطاعون بوالديه. وبداية من ١٣٥٢ أمضى حوالى عشرة أعوام فى فاس حيث كان يشغل منصب كاتب السر لدى السلطان أبوسليم. ولكنه لم يستطع أن يحيا حياة مستقرة أو أن يحقق مثله العليا السياسية لافى هذه المدينة ولافى غرناطة التى زارها فى ١٣٦٢ ولا فى بجاية أوتلمسان اللتين انتقل اليهما فيما بعد. غير أنه حصّل معرفة متعمقة بحياة البلاط وعمل الدولة وأتيح له أن يطلع على حياة القبائل العربية والبربرية.

وفى عام ١٣٧٥ قرر ابن خلدون وكان يبلغ من العمر عندئذ ٤٣ سنة أن يعتزل الحياة العامة كى يتفرغ للعلم. وأقام فى قلعة ابن سلامة (بالقرب من فراندا بالجزائر) حيث كتب النص الأول من المقدمة. وأضطرته الحاجة إلى مزيد من الوثائق الى التخلى عن عزلته، فعاد إلى تونس حيث اشتغل بالتعليم وأتم النص الأول من تاريخه العالمى الضخم أو"كتاب العبر". ولكنه لما كان يخشى إلى مكائد خصومه رحل عن المغرب بصفة نهائية فى سنة ١٣٨٤ واستقر فى مصر. وأتيح له فى القاهرة أن يتصل بالحاكم المملوكى الظاهر برقوق، واشتغل هنالك بالتعليم والقضاء مع مواصلة العمل فى كتابة مؤلفه الكبير. وشهد ابن خلدون قبل وفاته بخمس سنوات حصار دمشق والتقى عندئذ بقائد المغول تيمورلنك وترك لنا عنه صورة أخاذة.

وكان ابن خلدون يهدف أول مايهدف إلى أن يكون مؤرخا. فلقد أراد أن يؤلف عن عصره خلاصة جامعة يمكن أن تكون نموذجا يحتذيه المؤرخون فى المستقبل. ولم يكن راضيا عن الأساليب التقليدية فى توثيق الوقائع وتحقيقها، فوضع نظرية عن المجتمع لتكون شرطا أساسيا لكل كتابة تاريخية. وهكذا أسس فى "المقدمة" مانسميه اليوم أنثروبولوجيا. وسنقتصر فيما يلى على تقديم نبذة موجزة لبعض المصطلحات التى ترد فى مجموعة مفاهيمه المترعة الخصبة.

الفكرة الأساسية فى نظرية المجتمع كما وضعها ابن خلدون هى فكرة "العمران" وهى كلمة لانجد لها مرادفا يفسرها، وقد يمكن إذن أن يقال إن العمران هو الحضارة شريطة أن نسقط الفارق الذى توحى به هذه الكلمة الأخيرة بين مجتمعات "متقدمة" ومجتمعات "بدائية". وذلك أن "العمران" مفهوم جذرى يرتكز على فكرة الخلق الدينية ويدل على وجود الإنسان والنظام البشرى بصفة عامة. فالناس أساسا متساوون وأحرار ولهم على الأرض سيادة بوصفهم مخلوقات الله. ولايختلفون فيما بينهم إلا نتيجة لأحوال حياتهم التى تتوقف على ظروفهم الجغرافية والمناخية. كما يدل هذا المصطلح على مظاهر الحياة الاجتماعية وبصورة أخص على مظاهر الحياة الحضارية بما تتميز به من كثافة بشرية وذلك فى مقابل الحياة فى المناطق الجبلية والصحراوية.

ويميز ابن خلدون فى نطاق "العمران" حالتين هما فى الوقت نفسه المرحلتان الرئيسيتان فى تطور الإنسان. فهناك مرحلة أولى قريبة من الفطرة هى "البداوة" وهى مرحلة زراعية رعوية ولاتشبع إلا الحاجات الأساسية. ويلى ذلك "الحضارة" أومرحلة الحضر، وتتميز بالتعقيد وبإنتاج الفائض. وفيها يحقق المجتمع اكتماله وغايته. والعمران مقضى عليه بحكم قانون صارم بأن يترجح بين هذين القطبين.

ويرى ابن خلدون أن "الملك" هو العنصر الأساسى فى كل دينامية اجتماعية وتاريخية. فهو مصدر القوة الأكبر واليه يتجه طموح الإنسان ورغبات البشر، وهو الحافز إلى العمل والنشاط. ولما كان متقلبا بطبيعته فإنه ينتقل من فئة إلى أخرى ومن أمة إلى أخرى. وهو بفضل دوره الأساسى فى توزيع الفائض الاقتصادى وتنظيم بنية المجتمع - الدافع الى الانتقال من "البداوة" الى "الحضارة". وقد بنى ابن خلدون عمله كمؤلف على هذا المحور الأساسى فى الحياة الاجتماعية. ومن هنا درس الأمم التى كانت تحيط بالعرب والبربر والتى تداولت الملك الواحدة بعد الأخرى. ومن هنا جاء تطور روايته مطابقا لتقدم الفئات السياسية من "بداوتها" الأولى إلى ذروة قوتها فسقوطها.

والواقع أن هذه المفاهيم تندرج فى شبكة واسعة النطاق من الأفكار. ففى المجال الاجتماعى هناك "العصبية" و"النسب" و"الولاء" و"الاصطناع" و"النعرة" و"القهر" و"الغلب" أو "التغلب" و "الجاه" وفى المجال الاقتصادى هناك "المعاش" و"الكسب" و"القيمة" و"الأعمال".

ومن المؤكد أن المفاهيم التى استخدمها ابن خلدون والقوانين التى استخلصها فيما يتعلق بعمل المجتمع العربى البربرى والعروض الجامعة التى ألم فيها بكثير من جوانب التاريخ الإسلامى مازالت ضرورية لأى بحث أنثروبولوجى أو تاريخى عن المجتمع الإسلامى. ولايخطرن لأحد أ هذا البناء النظرى الصارم المتسق قد تجاوزه الزمن، فهو مازال مصدر غنيا بالمعارف العلميّة للباحثين المعاصرين.

عبد السلام شدادى ■

أعلاه صفحة من مخطوطة من الرق ترجع إلى سنة ١٧٣٣ لـ "مقدمة" ابن خلدون.
إلى اليمين رسم من السيرة الذاتية لبابر (١٤٨٣ - ١٥٣٠) مؤسس الإمبراطورية المغولية فى شمال الهند.

القواميس التى تعرف بالأعلام فى مجال الحياة الدينية والفكرية. ومن ذلك كتب التعريف بالشعراء والعلماء فى مجالات شتى والمجموعات التى تعرف بالفقهاء من مختلف المذاهب وفهارس الكتاب وسير الأولياء. وترسخ التراث التاريخى فى مختلف مناطق الدولة الإسلامية وازدهر.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) جاءت الفترة الثالثة التى شهدت تصدع التقاليد التاريخية نتيجة للانقلابات السياسية التى تعرض لها العالم الإسلامى حينئذ. وضاق نطاق الأنتاج التاريخى حتى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). ثم أخذت منطقة الشام تحتل مكانة هامة لفترة فظهر فيها مؤرخون مثل ابن الطى، وابن أبى الدم وابن النظيف الذين ألفوا تواريخ عالمية كبرى، والذين تابعهم بعد ذلك بقليل ابن الأثير مؤلف كتاب "الكامل". ثم جاء دور مصر فأنجبت مؤرخين كبارا مثل أبن حجر والمقريزى والعينى وابن تغرى بردى والسخاوى والسيوطى. وظهر فى المغرب فى نفس الفترة ابن خلدون الذى أثار تجديده إعجاب معاصريه ولكنه لم يجد من يواصل مسيرته. ■

التاريخ الأفريقى بين الرواية الشفهية والكتابة

بقلم : بوجوميل جوزيوكى
و ل . ى . موديبى



أعلاه "جريو" أى شاعر وموسيقار وراوية من شعب السنوفو فى الكوت ديفوار .

الصفحة المقابلة ، مجموعة من الصبية فى زيارة لمتحف جوس فى نيجيريا .

ظل تاريخ أفريقيا السوداء إلى عهد قريب لايوجد فى نظر العالم الخارجى إلا على شكل كتابات ألفها الغزاة الأوروبيون .أما اليوم فقد أصبح هذا التاريخ مبحثا قائما بذاته .ولم يعد أحد يجرؤ اليوم على أن يدعى - كما كان من عادة الباحثين أن يدعوا فى منتصف هذا القرن - أن أفريقيا وإن كان لها ماضى ليس لها تاريخ لأنها تفتقر الى الشواهد المكتوبة .وكان هؤلاء الباحثون يعتقدون أن المجتمعات الأفريقية لاتتقن فهم الزمان - وهو نوع من القصور "التقنى" حرى بأن يزيد من عزلة هذه القارة التى رأى هيجل أنها ليست جزءاً تاريخيا من العالم .

وقد كان لاستبعاد افريقيا من التاريخية اليهودية المسيحية التى نصبت من نفسها معيارا عالميا للعقل تماما كما فعلت أديان التوحيد تأثير عميق فى الخمسينيات والستينات على تفكير المثقفين الأفارقة الذين تلقوا تعليما غربيا والذين كانوا يناضلون بأسم الكرامة الأفريقية من أجل الحصول على حق حرموه صراحة ، ألاوهو الحق فى العالمية ومن ثم الاعتراف بالإسهام الافريقى فى تاريخ الأنسانية .وقد أقترن تزايد الوعى عندئذ بإدراك هؤلاء المثقفين أن للقارة تاريخا يستوجب النظر فى وقائع الماضى الأفريقى وإعادة تنظيمها .

واسترشد المثقفون الأفريقيون إلى حد بعيد بالسود الذين يعيشون خارج القارة والذين عمدوا فى نضالهم من أجل الاعتراف بإنسانيتهم إلى تكريس جهودهم فى البحث عن آثار قديمة تتعلق بالسود فى الغرب .وكانوا يحاولون فى الواقع أثبات مشروعية الإنسانية السوداء فى اطار مفهوم الثقافة كما صاغه مفكرو عصر التنوير بناء على الأفكار اليونانية الرومانية واليهودية المسيحية .وكان الغرض من هذا النضال كشف زيف فلسفة التاريخ الهيجلية

جمع ومقارنة البيانات الشفهية والمكتوبة

وكان أن قدم المفكر السنغالى شيخ آنتا ديوب ردا هيجليا فوضع نظرية مؤداها أن أصول الغرب ترجع إلى مصر الفرعونية التى كانت حضارة سوداء أساسا .وكان آنتاديوب ككثير غيره من كبار المثقفين فى عصره وفيا لهيجل على نحو لافت للنظر ومن ذلك أن رائدى التاريخ الاكاديمى لأفريقيا السوداء أدى أجاى وكى - زربو ذهبا إلى أن الاستعمار كان بمثابة "قوسين فى التاريخ الأفريقى ، فكأنه كان رحلة هبوط إلى قاع الجحيم جديرة بالنسيان ، ورأيا أن مستقبل افريقيا يصدر أصلا عن ماضى مجيد رده شيخ آنتا ديوب إلى مصر الفرعونية بينما رده كى - زربو وأجاى إلى فترة أقرب سبقت عصر الاستعمار .

ولما صاغ إيميه سيزير وليوبولد سنجور فكرة "الزنجية" (Negritude) أخذت البلاد الغربية وسائر أقطار العالم تعترف على نحو متزايد بالثقافات الأفريقية السوداء ، وبدأ المؤرخون بالتالى يسعون إلى إثبات تاريخية المجتمعات الأفريقية .

وثارت خلافات بين المؤرخين الأكاديميين وبين المؤرخين الذين ينظرون إلى الماضى نظرة فلسفية مثل شيخ آنتا ديوب ، ولكن الجميع كانوا يعتقدون أن الكتابة عن الماضى ينبغى أن تحول الى فلسفة سياسية للوقت الحاضر.بينما رأى المؤرخون الأكاديميون أن هذه الفلسفة تفترض عدة دول قومية ، كان آنتاديوب والمؤرخون المقيمون فى الخارج يحلمون بدولة واحدة .

وفى العقود الثلاثة فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٨٠ توطدت دعائم التاريخ الأفريقى بوصفه مبحثا جامعيا وأوليت فيه الدولة اهتماما خاصا كموضوع تاريخى .ويوجد اليوم كتابان أساسيان فى هذا المجال ، هما : "تاريخ أفريقيا العام" الصادر عن اليونسكو و"تاريخ كمبردج لأفريقيا" .وفى خلال جيل واحد أصبحت المعرفة الأكاديمية فيما يتعلق بأفريقيا جزءا من تاريخ البشرية .وتبذل الآن جهود واسعة النطاق لجمع وترجمة الشواهد الشفهية الخاصة بماضى مئات المجتمعات الأفريقية ولمقارنة هذه المعلومات بالبيانات الصادرة عن الثقافتين الغربية والإسلامية . وبفضل هذه الجهود الاضافية إلى تطور علم الآثار وعلم اللغويات والوسائل التقنية الجديدة وقوة الخيال والدقة اللتين يبديهما الباحثون إذ يواجهون تقلبات التراث الشفهي من حيث التسلسل الزمنى ، أصبح لدينا الآن كميات ضخمة من المعلومات عن الماضى الأفريقى .

كما صدرت مؤلفات شعبية جيدة .ومنها خاصة ما كتبه بالفرنسية ى . كيك و إ .ميوكولو .وتعتزم اليونسكو إصدار نسخة مختصرة من "تاريخ أفريقيا العام" وترجمتها إلى اللغات الأفريقية .غير أن من الممكن أن يقال بصفة عامة أن نتائج البحوث الأكاديمية لم تصبح بعد جزءا من تعليم التاريخ فى أفريقيا ، وهو وضع ناتج عن أزمة النشر والتوزيع فيها .

ضرورة التعاون الوثيق

وقد ساعد استخدام الأخبار الشفهية - وهو استخدام لايقتصر على التأريخ لأفريقيا - على إضفاء مشروعية أكاديمية على هذا النوع من الشواهد .كما ساهم فى وضع



حفائر أثرية فى جينه(مالى)
فى موقع مركز تجارى قديم .

منهجية للبحث كان المؤرخ جان فانسينا ومازال رائدها .واقتضى تحليل هذه الأخبار منذ البداية أن يتعاون المؤرخين على نحو وثيق مع أخصائى الأنثروبولوجيا وعلماء اللغويات .كما أدى بصفة عامة إلى التخفيف من الحواجز اللقائمة بين هذه التخصصات ودفع عدد من الباحثين إلى قبول مفهوم "حاضر الإثنوجرافى" فى مصطلح الأنثروبولوجيين .وترتب على ذلك ظهور تقسيم الماضى الأفريقى تقسيما مصطنعا بحد فاصل هو الأستعمار .ورئى بناء على ذلك أن التاريخ الذى سبق هذا الحد كان بوتقة للحياة الأفريقية الأصيلة . بينما أهمل التاريخ الاستعمارى أواعتبر فترة فاصلة من التثاقف والسيطرة كما أنبثق عن المفهوم "الحاضر الإثنوجرافى" فكرة لم تعد تستخدم اليوم ، وهى أن أفريقيا السوداء متحف حى للتطور البشرى .

أما الفكرة التى مؤداها أن الأخبار الشفهية ليست جديرة بالأهتمام أو أنها لم توجد إلافى فترة الأستعمار فانها فكرة باطلة مؤداها أن المجتمعات الأفريقية فقدت القدرة على التحكم فى مصيرها فقدانا تاما فى فترة الأستعمار .ولقد تمخض مثل هذا التفكير عن أسطورة هى أن الأفريقى الحضرى ظاهرة شاذة من الناحية الثقافية وأن الأفريقى "التقليدى" الذى يسكن الريف هو الأفريقى الأصيل .ولقد كان لهذه الأسطورة ولغيرها من الأساطير تأثيرا عميق على دراسة التاريخ الأفريقى دراسة علمية ولقد صدر عن المؤسسات الأكاديمية والباحثين والأفراد عروض لأخبار الدول الأفريقية وبلاطات كبار الزعماء فى أفريقيا .ومن الملاحظ أن الشعور بالأهمية الملحة قد حدا بجميع المؤلفين إلى ترجيح أقدم الأخبار ، فكأنهم يعملون بالمثل القائل : "كلما مات شيخ ضاعت بموته مكتبة"

وكان هناك إذن ميل إلى الاهتمام بالجانب الوثائقى من التراث المنقول شفهيا .ولكن الجهود الرامية إلى اضفاء المشروعية على الروايات الشفهية كوثائق أرشيفية قد أنست الباحثين أنها أيضا أمثلة من الخطاب التاريخى فى حد ذاتها .

فالراوى أو "الجريو" الذى كان ملتحقا بالبلاط فى الفترة ماقبل الاستعمار مؤرخ فى المقام الأول .

وشهدت الستينات تحولا فى الدراسات التاريخية الأفريقية عندما طوعت الأساليب النقدية الكلاسيكية لتمحيص المصادر بحيث تصلح لتحليل البيانات الشفهية.وقد دعت ضرورة إقناع الرأى العام المتشكك بأن فكرة التاريخ الأفريقى فكرة صحيحة إلى التسليم بأن الطريقة الشفهية فى حفظ المعلومات يمكن أن تكون مطابقة للوقائع مثلها فى ذلك مثل الكلمة المكتوبة وذلك طالما كان للبنى السياسية من الاستمرار ما يضمن انتقال الروايات الشفهية.

ومن الملاحظ أن مؤرخى أفريقيا يبدون اليوم الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى .وهم يواجهون مزيدا من الانتباه إلى ما يسمى بـ"التاريخ فى نطاق ضيق" "Micro - History" .

وبإمكاننا بفضل جهودهم أن نتعلم كيف نحترم حرص المجتمعات الأفريقية علي حفظ ماضيها فى سجل متصل .والواقع أن الأفريقيين مازالوا يكتبون تاريخهم لقرون وذلك منذ أن أعطتهم الثقافة الإسلامية حروف الهجاء العربية فاعتمدها علماؤهم الذين صاروا جزءا من ثقافة منطقة الساحل الأفريقية .

والافريقيون فى هذه المنطقة وفى غيرها من المناطق يروون ويغنون ويمثلون (عن طريق الرقص والشعر ومسرح العرائس) وينحتون ويرسمون تاريخهم .وهم كغيرهم من الشعوب قد حافظوا دوما على إدراك ماضيهم وحرصوا على وضع رواياتهم التاريخية التى تراعى الوقائع فى إطار تفسيرى وجمالى يجعل الماضى مفهوما ويربطه بالحاضر والمستقبل . وبذلك نشأ نوع من الخطاب مفيد وأصيل ويمكن تصديقه ، وصار لهذا الخطاب مكان فى تاريخ العالم فلنسلم إذن باسهام "الإنسانية" السوداء فى صنع التاريخ المشترك .فمصر لم تكن حضارة أفريقية فحسب ، وإنما كانت أيضا حضارة سوداء شأنها فى ذلك شأن الإنسانية فى باكورة تاريخها .وكان القديس أوغسطين ينتمى – كما انتمى كثيرون غيره من المفكرين - إلى مجتمع مختلط الأجناس .وقد أصبح من الممكن الآن أن ننظر إلى التاريخ الأفريقي والى مناهج التأريخ فى المجتمعات الأفريقية بمزيد من الانصاف والاتزان .

فنحن نعلم الآن أن التاريخ الأكاديمى الذى ظل إلى عهد قريب يمجد الكلمة المكتوبة التى قام عليها ليس هو الأسلوب الصحيح الوحيد .وذلك أن التاريخ الشفهى يرتكز بدوره على معايير عريقة ومنطق خاص فى تفسير الماضى .فلماذا نشعر بأنه يتعين علينا أن نقدر هذا التاريخ كمادة أرشيفية غفل فى انتظار النظرة الفاحصة التى يلقيها المؤرخ العصرى ؟ ■

JEWSIEWICKI
بوجوميل جيلنيكى
. من كندا . يعلّم التاريخ بجامعة لافال (كندا) .ألف كتاب "African Historiographies : What History for Which Africa" ("طرق التأريخ فى أفريقيا : أى تاريخ ولأى أفريقيا ؟" ١٩٨٦).

MUDIMBE
ف.ى. موديمبى
من زائير. أستاذ اللغات الرومانسية والأدب المقارن فى جامعة ديوك (الولايات المتحدة)



الاتحاد السوفيتى ونهاية "البقع البيضاء"

بقلم : فلادلن سيروتكين

كان المؤرخون فى الاتحاد السوفيتى يضربون صفحا عن فترات كاملة من التاريخ ، سواء أكانت من التاريخ السوفيتى أو العالمى . فهى لم تزيف وإنما أغفلت إغفالاً تاما ، فأصبحت "بقعا بيضاء" فى صفحة التاريخ . ومثال ذلك أنه قد حذف من صفحة الماضى قدماء البلاشفة من أمثال بوخارين وزينوفييف وتروتسكى وغيرهم ممن أعدموا . ولذلك نشهد اليوم انقلابا حقيقياً فى مجال نشر السير . والقى فى سلة المهملات التصور الستالينى لتأميم الزراعة والتصنيع . وترتب على ذلك أن تعين علينا أن نلغى امتحانات التاريخ بسبب نقص الكتب التعليمية الجديدة . واستبدلنا دروسنا عن تاريخ الحزب الشيوعى والشيوعية العلمية والاقتصاد السياسى للاشتراكية ، بدروس عن التاريخ الاجتماعى والسياسى للقرن العشرين.

ويجرى الآن وضع كتب تعليمية جديدة . وثمة فريق يقوم الآن بإعداد كتاب عنوانه :"دراسات حول تاريخ الحزب"، ويعكف فريق آخر على وضع تاريخ للاتحاد السوفيتى . وقد اشتركت فى تأليف كتاب عن التاريخ العالمى وجاء إسهامى فى تاريخ فرنسا وايطاليا وأسبانيا وسويسرا وبلجيكا .

ويمر الوسط العلمى للمؤرخين بمرحلة من التطور شامل. فعلى أحد طرفيه ، يوجد الأستاذ المخضرم المعارض على الصعيد الفكرى على الأقل : وعلى الطرف الآخر يوجد الشباب من الباحثين وأساتذة الجامعات واليساريين . وفى الوسط ، يوجد أمثالنا ممن تتراوح سنهم بين الخامسة والاربعين والخمسين . ونحن نجاهد لدفع الأمور إلى الأمام .

ولنأخذ على سبيل المثال الثورة الفرنسية . فمنذ خمس سنوات ، كنا ندرّس أساسا فترة "الإرهاب" .فالثورة بدون الإرهاب ليست بثورة – وهكذا كانوا يبررون الإرهاب . ولم نكن ندرّس أى شىء عن زعماء الثورة باستثناء روبسبير . أما هذا العام الذى شهد الاحتفال بمرور مائتى عام على قيام الثورة الفرنسية ، فقد تحسن الوضع ، وملأنا بعض "البقع البيضاء" بإصدار كتب تبحث بصورة موضوعية جميع جوانب الظاهرة الثورية . ويصدق هذا أيضا على الثورتين الإنجليزية والأمريكية . وقد كتبت أنا نفسى عدة مقالات قارنت فيها بين الثورات الثلاث وثورة أكتوبر .

وفى الماضى كان هناك كثير من الكلمات والأسماء فى عداد المحرمات ، مثل "التقارب" و "معسكرات الاعتقال" و "عضو الأكاديمية سخاروف". ولم يكن التحريم لأسباب تاريخية ، ولكن لأن تلك الموضوعات تمس السياسة . أما اليوم فإننا نتحدث عن كل هذا بمطلق الحرية ، ونعبر عن آراء مختلفة ومتباينة . واختفى ذلك التجانس الظاهرى ، وحل محله الآن تعدد الآراء والديمقراطية. فمنذ خمس سنوات تغير كل شىء.

ولاشك أن هناك قوى محافظة تحاول عرقلة هذه الانطلاقة وكبحها . ولكن الجامعة حيث أقوم بالتدريس



أعلاه أعضاء الحكومة السوفييتية يحيون عيد أول مايو فى الميدان الأحمر بموسكو سنة ١٩٢٩ ويرى نيقولا بوخارين فى أقصى اليسار.

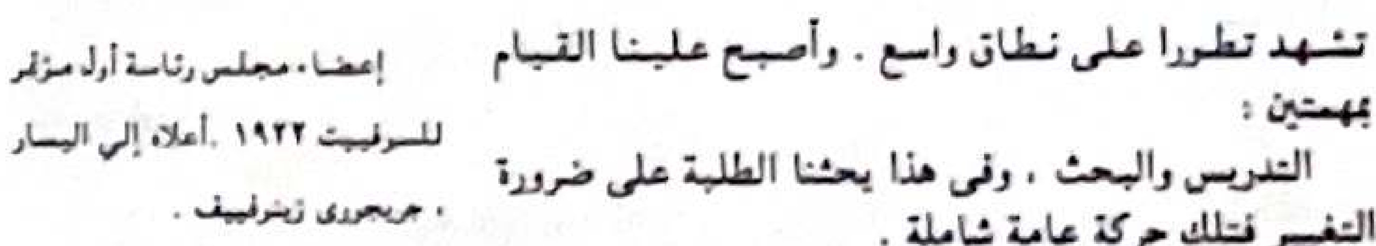
أعلاه ، بعض المقالات التى نشرت مؤخرا فى الصحافة السوفييتية عن تروتسكى .











إعضاء مجلس رئاسة أول مؤتمر للسوفييت ١٩٢٢ .أعلاه إلى اليسار ، جريجورى زينوفييف .

تشهد تطورا على نطاق واسع . وأصبح علينا القيام بمهمتين :

التدريس والبحث ، وفى هذا يحثنا الطلبة على ضرورة التغيير فتلك حركة عامة شاملة .

"أنتم مؤرخون . وعليكم أن تتخذوا القرار"

وقد صارت حرية المطبوعات مكفولة ولكن ذلك لم يحدث إلا منذ سنتين ، وهو ما يفسر وجود كتب تعليمية جديدة . ولكن فى مقابل ذلك ينشر عدد ضخم من المقالات فى بعض الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات التاريخية ، وليس فى جميعها ومازال بعض هذه المجلات . فى انتظار الأوامر والتعليمات من اللجنة المركزية ، ولكن اللجنة المركزية تلوذ بالصمت . وقال جورباتشوف : "لاأوامر ! أنتم مؤرخون ، وعليكم إذن أن تتخذوا القرار !" .

ولسد فراغات "البقع البيضاء" فى دور المحفوظات ينبغى استخدام الكتب التى سبق حظرها ، وهو ما يسمى عندنا "بدور المحفوظات الخاصة" أو "المكتبات الخاصة" أو "دور الوثائق الخاصة". أما الآن فكل شىء ينشر دون استثناء. وهكذا أتيح لى أن أنشر فى المجلة الأسبوعية "Smen" وثيقة كبرى عن تروتسكى والتروتسكية . كما أننى نشرت فى جريدة يومية مخصصة لمعلمى الثانوى ، مقالا مطولا ومصورا عن "ستوليبين" المصلح الأول الذى ظهر فى مطلع هذا القرن . فقد أراد أن يجرى إصلاحا زراعيا ، ولكن المحافظين أبعدوه. وبفضل مانشر من صور ، رأينا ستوليبين لأول مرة.

وينبغى علينا لكى نرسم لوحة تاريخية حقيقية ، أن نستخدم كل المحفوظات ، وكل المصادر. والمشكة التى تواجهنا الآن هى ضرورة إقناع أمناء المحفوظات المتحجرين ، والبيروقراطيين المتشددين. والواقع أن هذه الدور ليست مغلقة كما يظن فى كثير من الأحيان. ويستطيع كل شخص أن يتوجه إليها وأن يطلب ما يحتاج إليه من مراجع. فكل شىء متاح من الناحية الرسمية ، حتى محفوظات الحزب. ولاأدل على ذلك من اكتظاظ دور محفوظاتنا بالباحثين الأمريكيين واليابانيين. وثمة مكتبة كبيرة للأفلام بالقرب من موسكو ، وقد شاهدت فيها بعض الأفلام طوال يوم كامل دون أية صعوبة. كما أننى سافرت إلى الخارج بكل حرية ، وعكفت على العمل فى دور المحفوظات فى إيطاليا وفرنسا وبلجيكا. وسأقوم بزيارة الولايات المتحدة الأمريكية فى العام القادم.

كيف نضع تاريخا علميا ؟

لست من أنصار المنادين بأن نكتب على الفور تاريخا يصلح للجميع. فلابد من توافر الوقت والسير خطوة بخطوة. ولنعد إلى موضوع الثورة الفرنسية.

فقد أصدرنا بمناسبة مرور مائتى عام عليها ، كتابا كان ثلث مؤلفيه من الفرنسيين. واتبعنا فى ذلك المبدأ الذى انتهجناه من قبل عند وضع "قاموس المكاشفة" ، وهو أن يشترك فى كتابة الفصل الواحد مؤلفان ، أحدهما سوفيتى والآخر فرنسى. ومن ثم تحققت المعايير العلمية وانحسر نطاق الأيديولوجيات. ولكن كيف نضع تاريخا علميا ؟ فبعض المشكلات لها متضمنات أيديولوجية أو آثار سياسية.

وإننى أعتقد أن مهمة المؤرخين لاتقتضى شرح كل شىء ، ولكنها تنصب على الكشف عن كل ما حدث فعلا. وفى الوقت الحالى ، لايمكن القول بأن لدينا تاريخا علميا حقا ، فذلك لم يحدث بعد ، غير أننا فى سبيل تحقيق ذلك. وتعتبر الصحف من هذه الناحية ، ذات أهمية كبرى. فعندما كنت طالبا فى موسكو ، لم أكن أتباهى بانتمائى إلى كلية الآداب ، بل كنت أزعم أننى أعد نفسى لكى أصبح مهندسا أوفيزيائيا ... أما الآن ، فقد آن أوان المؤرخين. فالتليفزيونات والصحف والإذاعات السوفيتية والأجنبية تلاحقنا بأسئلتها. ولقد اضطرنى الأمر إلى إجراء مايقرب من مائة مقابلة شخصية مع مراسلى الصحف اليومية من جميع أنحاء العالم تقريبا.

ويلاحظ أن الشيوعيين فى بقية العالم ، وخاصة فى بلدان العالم الثالث ، قد قنعوا لفترة طويلة بالأخذ بالنص الرسمى للتاريخ السوفييتى. ومن ثم كانت التغييرات التى تجرى عندنا الآن تثير حيرتهم وتوقعهم فى الارتباك. فقد كنالهم نموذجا يحتذى وصورة للجنة على الأرض. ولكنها صورة خاطئة، وقد بدأت تهتز بالفعل منذ أكثر من ثلاثين عاما ، أى منذ انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ، وصدور تقرير خروشوف عن ستالين. أما الآن فقد أصبحنا منفتحين وبدأنا نناقش ونسعى لإظهار الحقائق. وهؤلاء الرفاق لم يتعودوا على ذلك.

والواقع أن الحركة الشيوعية لم تتعود على تعدد الأفكار، وهو الأمر الذى ساد فى رأيى فى عصر لينين. وقد فقدنا عادة المناقشة منذ عهد ستالين. ولذلك أصبح لدينا فى الاتحاد السوفيتى عدة أوساط أوقعها الوضع الحالى فى حالة من الحيرة والبلبلة. ولقد ذهبت إلى الجزء الرائع فى أقصى شرقى البلاد ، ولاحظت أن الناس هناك لايفهمون ما يدور فى موسكو أو فى لننجراد. وسوف يقتضى إفهامهم وقتا طويلا ، وعلينا أن ندرك ذلك. ■

بيوتر أركاديفيتش ستوليبين (١٨٦٢ - ١٩١١)

Slrotkln

فلادلن سيروتكين .

مؤرخ سوفييتى ، يعمل بالأكاديمية الدبلوماسية فى موسكو أخصائى فى تاريخ فرنسا والعلاقات الفرنسية السوفييتية .ألف كثيرا من الكتب بما فى ذلك دراسات عن حروب نابليون والعلاقات بين فرنسا وروسيا فى القرن التاسع عشر

"50 idees qui ebranlent le monde. dictionnaire de la glasnost ." dirige et preface par youri afanassiev et marc ferro, ed. payot, paris 1990 /ed. progress ١٩٨٩, moscow

فى العدد القادم

الجزء الثانى من الموضوع

"البحث عن الماضى"

صناعة التاريخ

مقالات عن
مومسن
ميشيليه
هيجل
ماركس
برودل
ومناهج التاريخ فى
أفريقيا
أوروبا
الولايات المتحدة
المكسيك
أندونيسيا
الهند ..

رسالة اليونسكو

تصدر شهريا فى ٣٥ لغة عن اليونسكو : منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة وتنشر طبعة مختارة (المسكوفين) بالانجليزية والفرنسية والاسبانية والكورية

هيئة التحرير (باريس)
المدير العام : بهجت النادى
رئيس التحرير : عادل رفعت
مدير التحرير : جيلبان جرايت كرمب

المحررون :
الطبعة العربية : عبد الرشيد الصادق محمودى (باريس)
الطبعة الفرنسية : آلان ليفيك نيدى الخازن (باريس)
الطبعة الانجليزية : روى مالكين (باريس)
الطبعة الأسبانية : فرانسيسكو فرناندس - سانتوس (باريس)
الطبعة الروسية : نيقولاى كوستشوف (باريس)
الطبعة الألمانية : فرنير ميركلى (برن)
الطبعة اليابانية : سيشيرو كوجيما (طوكيو)
الطبعة الايطالية : ماريو جيدونى (روما)
الطبعة الهندية : راجماى سوارى (دلهى)
الطبعة التاميلية : م. محمد مصطفى [illegible]
الطبعة العبرية : ألكسندر بروديو (تل أبيب)
الطبعة الفارسية : حسين رازمجو (طهران)
الطبعة الهولندية : بول موريس (أنفرس)
الطبعة البرتغالية : بنديكتو سيلفا [illegible]
الطبعة التركية : مفرا الحاج (استانبول)
الطبعة الأوردية : حكيم محمد سعيد [illegible]
الطبعة الكتالونية : جوان كاريراس إى مارتى (برشلونة)
الطبعة الماليزية : عزيزا عزا اكوالا [illegible]
الطبعة الكورية : بايك سونج - جيل [illegible]
الطبعة السواحلية : دومينو روتايهيرا [illegible]
الطبعات : الكرواتية - الصربية - والصربية [illegible] والسلوفينية والمقدونية : [illegible]
الطبعة الصينية : شن جروفين (بكين)
الطبعة البلغارية : جوران جوتيف (صوفيا)
الطبعة اليونانية : نيقولا بابا جيورجيو (أثينا)
الطبعة السنهالية : س. ج. سوماناسكرا بندا [illegible]
الطبعة الفنلندية : مرجانا أوكسانن (هلسنكى)
الطبعة السويدية : ألجر راس (ستكهولم)
الطبعة الباسكية : جوريس لاراهاجا [illegible]
الطبعة التايلاندية : ساهيرى سرانسابت (بانكوك)
الطبعة الفيتنامية : داو توينج (هانوى)

المقالات والصور التى لا يترتب عليها حق المؤلف يمكن نشرها بعبارة «منقولة عن رسالة اليونسكو» يضعها تاريخ صدور العدد. وترسل ثلاث نسخ منها الى ادارة الرسالة . والصور التى لا يترتب عليها حق المؤلف يمكن ارسالها الى الناشرين بناء على طلبهم. والمخطوطات التى لا تطلبها ادارة المجلة لا ترد الى أصحابها إلا إذا أرفقت بها قسيمة رد دولية. والمقالات التى تنشرها رسالة اليونسكو تعبر عن رأى مؤلفها وليس بالضرورة عن رأى اليونسكو أو هيئة تحرير الرسالة. وهيئة التحرير هى التى تتولى اعداد عناوين المقالات وشروح الصور. وأخيرا فإن الحدود المبينة على ما تنشره المجلة من خرائط لا تعنى الاعتراف بها رسميا من جانب اليونسكو أو الأمم المتحدة

تصدر الطبعة العربية بإشراف مركز مطبوعات اليونسكو
١ طلعت حرب - القاهرة
رئيس مجلس الإدارة : د. السيد محمود الشنيطى


大成至聖文宣王殿